البحث عن لآلئ ثمينة

البحث عن لآلِئ ثمينة

القصص القصيرة الكويتية

الفهرس

سليمان الشطي

الأصابع المقطوعة..... 5

صوت الليل..... 10

ليلى العثمان

ليلة القهر..... 19

سيجارة أمي..... 26

ثريا البقصمي

العرق الأسود..... 34

زمن الانحدار..... 39

طالب الرفاعي

ابتسامات..... 45

وضحى..... 48

أم..... 53

قرب المدخل..... 57

حمد الحمد

عثمان... وتقاسيم الزمان..... 61

فوق السطوح..... 71

باسمة العنزي

إشارةُ خلاصٍ واحدةٌ.....75
مرّ منْ هُنا.....78

خالد عادل النصرالله

المنصة.....83
يأتي من بعيد.....86

مشاري محمد العبيد

نقطة تفتيش.....95
النكبة في الأسفل.....98

فيصل الحبيني

لأنه حرّك عينيه فحسب.....104
حكاية هزاع الذي أنجب والده.....112

بسام المسلم

تقرير تغيُّب.....126
اللَّيْلَة يَموتُ شَهْرَيار 128

الأصابع المقطوعة

... كانت الرحمة طابع شمس ذاك النهار في ذلك الفصل القائظ، فليس ثمة من رطوبة أو غبار، اللهم إلا إذا سُمي غبار العباءة المنبسطة غبارا، خصوصا أن قدميه الصغيرتين تشاركانها في إثارته... وأحس بلزوجة العرق في كفه كلما ازداد ضغط الأم عليها! ورغبة جامحة تدعوه لكي يتفحص ما حوله؛ لعله يرى شيئا يُسري عنه كآبة الطريق الذي خلا من كل شيء إلا الجباه المقطبة القابعة أمام متاجرها، ولعل رحمة الشمس امتدت إلى الجيوب، فحنت عليه، فظلت مقفلة في ذاك اليوم... وأحس بتأففهم البغيض... وقطة استلذت التفرج على الذاهب والآيب فتجمعت فوق حافة السطح الطيني المائل... وكلب يسير في الظل وقد أرخى أذنيه وذيله، كلاهما مطمئن لوقت السلم فرح به...

- امش...

ونظر إليها، وإلى يده في يدها، ولم يكن في هذه الكلمة ما يثيره، بل فيها كثير مما يسعده وسط هذا الجو الهادئ... وجرسها الموسيقي يدغدغه فاستطابه بخبث، وحرص عليه بعبث، ولكن وجه أمه الغاضب تحت «البوشية» جعله يحجم عن رهبة، خاصة أنه لمح من تقطيبتها كل شر... وعاد مرة ثانية إلى الشارع الكئيب، وركز نظره على السور الممتد...

يا له من سور طويل، لقد مضى وقت وهم يستظلون بظله، فلم ينته امتداده! وسار بنظرة معه حتى عثر في نهايته على ثلة من الجنود يحرسون القصر الكبير، وقد شُغلوا عن الحراسة بالملل القاتل فانصرفوا للضحك، يا ترى ما الذي أثار الضحك في نفوسهم، اللهم إلا... وابتسم... ليس هناك إلا شوارب العريف المقوسة تحت أنفه الكبير الموشى بالجدري، وحواجبه الكثة، الخيوط التي تعتلي كتفه قد مالت... ولكنه سرعان ما يرفع كتفه عندما يرى قادما ليجعل خيوط الرتبة على مرأى البصر، ولم يكن هناك ما يشغله إلا... يا ترى... هل رأى النياشين... لا بد... حتما رآها وإلا فيكون غبيا... وأنا لا يهمني الأغبياء... دائما يشغل نفسه بهذه الخواطر التي تملأ عليه نفسه، اعتاد على هذا الوضع حتى أن هذه التساؤلات بدأت تظهر، وتبرز من خلال أصوات متقطعة...

ولم يكد يلمح العباءة السوداء حتى رفع كتفه ونفخ أوداجه وأبرز صدره وببطء وبحركة رزينة داعبت يداه شاربه الصاروخي، فضحك الطفل ولكز أمه هامسا مادا إصبعه:

- أماه... انظري إلى شاربه!

□ فهمست محذرة: اسكت... لا ترفع إصبعك...

- إنني لا أرفعها... فقط أشير إلى هذه الشوارب الضخمة.

□ قلت لك لا ترفع إصبعك...

- ولماذا لا أرفعها...؟

□ يقطعونها.

- وأحس بالألم: ولِمَ يقطعونها؟!

□ فأجابت غاضبة: قلت لك يقطعونها... اسكت... يا الله... وسكت...

- ولكن هامسا: لايزال يعبث به.

ولكن لماذا؟ لماذا يقطعون الأصابع... الأصابع بالذات... إنه يسمع دائما أن الشرطة تقطع الأصابع... ونظر إلى أصابع أمه الصغيرة وهي تحتضن يديه بقسوة، إنها سالمة... ومرة أخرى ركز نظره على شارب العريف.

- يا ترى لماذا لا يقطعون الشوارب؟

وسألها فأجابت بدون أن تنظر إليه...

- لأننا كلنا نملك الأصابع.

وهز رأسه كمن يفكر في أمر عظيم... مثل والده عندما يحصي الأسماك... وعاد مرة أخرى إلى الشوارب، ولكنهم بعدوا بحيث لم يتبين إلا القامة المنتصبة، وسواد يعتلي الفم، ويد العريف ترتفع لتربت على الشارب المنطلق من قاعدته.

وسار مستسلما شارد الذهن بعيد الأفكار يسير وسط غابات من الأصابع المقطوعة تحيط بالطريق العام، تجعله لا يرى إلا أصابع فوقها سكاكين وعرق متجمع وشفاه احتقنت تحت أسنان تطرد الألم.

- حرام... إنهم لم يعملوا شيئا... مجرد مد الأصابع مبهمة لا يدركها.

- مسكين... لعلهم قطعوا أصابعه.

والشيطنة وإلا تعرف جزاءك.

- تقطعين إصبعي. نعم... وجذبته.

نسوة أحطن بالشاي، وقد اتخذن شكلا مربعا، وثلاثة صحون فيها بقية من مكسرات، وعجوز محدودبة الظهر قد تصدرت المجلس... آه ما هذا... إصبعها ملفوفة بقطعة من القماش الأسود الذي كان في سابق عهده التليد ناصع البياض... لقد قطعوها... الملاعين... لعلها أشارت بها إلى ذلك الرجل ذي الشارب. وأحست بوقع نظراته عليها فابتسمت له ودعته... فاقترب منها، وجلس، ومدت يدها تربت على رأسه...

- كيف حالك يا منصور؟

وأحس بالفخر... إنها تعرف اسمه... المرأة ذات الإصبع المقطوعة تعرف اسمه... ووجد الفرصة مواتية لكي يسأل عن هذه الإصبع المقطوعة.

- مَنْ؟... مَنْ الذي قطع إصبعك؟

- إصبعي؟ ونظرت إلى إصبعها وابتسمت – آه... إصبعي... لقد قطعتها السكين... ومد يده يتحسس الرباط بحنان.

- هل تشعرين بألم؟

- إي والله يا ابني... أحس بألم شديد... ونظر إلى الباب بغضب وهو يضغط أسنانه... ملعون هذا... ابن الكلب... ذو الشوارب... وعجبت العجوز ونظرت إليه في حيرة.

- شوارب؟... أي شوارب هذه؟ وضحكت الأم ومالت على أذنها، فابتسمت العجوز... إيه يا بني إنهم ملاعين... إياك أن تمد إصبعك؟

وعادت تتابع ما انقطع من حديث... وغاب هو في عالم بعيد قادته إليه الأفكار، وأخذت تجنح به تثير أعصابه... ملعون أنت... إني أكرهك يا قاطع الأصابع، أكرهك بعدد شواربك المدللة، يا لك من وغد كريه لن أتركك... وهؤلاء أيضا... لماذا؟... لماذا لا يثورون؟ لماذا لا يقطعون أصابعك؟ إي نعم كل أصابعك... وأنا سيتركونني

أهتم بشواربك... سأشدها وفق ما أرى وأشاء... حسنا ليس هذا ببعيد... ليس بعيدا... وعادة مرة ثانية إنهم لا يهتمون بأفكاره. حتى العجوز ذات الأصابع المقطوعة إنها تضحك... أواه... حتى أسنانها قد قطعت... لماذا؟... لماذا لا يهمها الانتقام؟ يا لهم من جبناء، إنه واحد ونحن كثرة، أنا وأنت والحمّال وكل الناس كلهم... والجنود؟ الجنود إنهم أيضا معنا لا يهمهم صاحب الشوارب، ألم أرهم يضحكون؟... أوه... إنهم جبناء لن ينتقموا... أنا الذي سأنتقم لهم... سأقطع كل الأصابع وحدي... كل يوم إصبعا... ولكن كم إصبعا له؟ ونظر إلى أصابعه إنها عشر... لا، عشرون... والشوارب... واحد وعشرون... ولكن هل أصابعه بعدد أصابعنا؟

وأحس بحيرة. لعله يملك ثلاثين أو أربعين. إنه جبار... ظالم... وسأل أمه... فأجابته وهي غارقة في الحديث... لقد فرغنا من هذه المشكلة وعرفنا عدد الأصابع... إذن احتاج إلى واحد وعشرين يوما... حسنا والسلاح... وأخرج سكينة صغيرة من جيبه... لا... لا تتناسب مع قوة العدو... هذه مشكلة أيضا... أوه، ليست هذه عقبة... البركة في سكين المطبخ الجديدة... كبيرة ستقطع الإصبع بضربة واحدة... غدا... غدا... يوم المعركة... معركة الأصابع... غدا قطع أول إصبع. وانتفخت أوداجه... غدا... الأمل يدفعه لسعادة أبدية قضى ليله يفكر فيها، ويخطط لها، ويمني النفس بما تشتهي وترغب... ليلة قضاها... يخطط ويرسم الخطة تلو الخطة، وجرّب كل أنواع الضرب والطعان حتى عرف من أين يبدأ، وعرف الهدف الأول وحدده... إنها الإصبع التي يمسح بها شاربه... وحدد مكان المعركة ومن أين يهجم... لن يشعروا به لأن السور سيحميه... نعم الكل معه، حتى السور الكبير سيسير في ظله وسيقف تحته ليرقبه، متى تأكد من هدفه، وهو الإصبع التي يمسح بها شاربه، بعنف سيهجم... وبقوة سيضرب... ضرب أسد ضرغام... وأحس بشيء جميل يدغدغ جوانبه، يا لي من منقذ... إني عنترة هذا الزمان.

القصر الكبير فوقه... وذاك واقف... المكان نفسه... الهيئة نفسها... الانتصابة نفسها. حسنا لن تهنأ بهذا السلطان... سأقضي عليه. وببطء وحذر ودافع يدفعه

جعله لا يرى إلا ذاك المنتصب... وعرق جبينه ولزوجة في يده تكاد السكين تنزلق من يديه ووقف ينتظر...

ولم يكن في ذهنه ما يشغله إلا نياشينه الخالدة، وعيناه اللتان تدوران في الطريق بحثا عن عابر ذكي... مفكر... آه... لقد أقبل... ورفع يده ومسح الشارب... وهجم رافعا السكين، وأحس بها وهي تلتطم بيده، ولم يصب الإصبع، ولكنه جرح الساعد... ولا يدري ماذا جرى بعد ذلك... ولم يعد يشعر إلا بالضحكات تموت وسط الغضب... والأقدام تزلزل الأرض. ويجري... وسكينه في يده تجري معه... ولم يمسح العرق... ولم يحكم «دشداشته» التي انفتح صدرها... بل اندفع بعيدا من سكة لأخرى... ومن أخرى لشارع عام... لقد اندفع... ولم يعد يسمع شيئا... تلاشى وقع الأقدام... ولكن قلبه لايزال يطرق صدره... ووقف ثم سار ببطء ومسح العرق، وأحكم «الدشداشة» ونظر للسكين، كان عليها قطرات من دم. وانتفض على صوت أمه وهي تناديه من غابته البعيدة...

- منصور... تعال سنذهب للمنزل...

فوثب تدفعه الحماسة، ومد يده مسلما على العجوز ذات الأصابع المقطوعة ونظر إليها بعين براقة:

- غدا سأنتقم لك ولإصبعك... وكل الأصابع المقطوعة... بل حتى أسنانك المقطوعة... كانت قدماه تتحركان بنشاط غريب في ذلك الصباح الذي بدا جديدا... عزيمة تدفعه إلى المعركة الفاصلة... لم يعد يرى إلا إصبعا مقطوعة وسكينا تهوي... في صدره طائر يرفرف بجاحيه...

والتفت:

- سأعود... وسيكون معي كثيرون ممن يكرهون قاطعي الأصابع...

أغسطس 1964

صوت الليل

انتفـض... ألقـى دثـاره في حركـة رعـب مفاجئـة، كان في أولى لحظـات خـدر النـوم عندمـا اخـترق أذنـه صـوت جـرس البـاب يهشـم صمـت الليـل، إذن هـو الإزعـاج الـذي حـاول أن يتجنبـه حينـما اختـار صوتـا رقيقـا مداعبـا، ولكـن هـا هـي ردة الفعـل القويـة تثـير كل جـزء مـن بدنـه...

قذفـت زوجتـه - التـي سـبقته إلى الهاتـف الداخـلي - بالسـماعة، وجههـا الـذي تشـكل بشـكل النـوم لا دمـاء فيـه، وبحشرجـة خـوف واضحـة قالـت:

- أحدهم سيموت!

دب في ركبتيه تيار خوف سار، أمسك بالسماعة:

- مَنْ، مَنْ أنتَ، ماذا تريد؟

صوت جريح متألم يسري من أذنه إلى كل أطراف جسده.

- افتحوا الباب... سأموت، آه، يا ناس... آه.

وسنان في عالم خدر بين حلم اليقظة وأول النوم ودغدغته.

سرح وراء الصـور التـي يسـتحضرها مـن لحظـات يومـه، يضيـف إليهـا الكثـير يجملهـا بخيـال ممتـد حتـى يتـلاشى مـع السـبات. صـورة تحيـط بـه: المجلـس الكبـير حيـث الأصـوات المتقاطعـة التـي لا يسـيطر عليهـا إلا المنطـق المحكـم. حديـث لا ينتهـي حـول وسـائل الخدمـة الاجتماعيـة، لقـد التقـط ذكاء عابـر نقاطـا يثيرهـا كلـما اشـتد الجـدل مـن حولـه وامتـد بسـاط الحديـث فتتقـدم الكلمـة المحكمـة والـرأي الصائـب. يمغنـط الأنظـار إليـه. حينئـذ تـبرز قامتـه التـي تسـتطيل ويرتفـع صوتـه:

- علينـا أن نعيـد خلـق الجسـور التـي حطمهـا هـذا العـصر. لقـد أصبـح الإنسـان وحيـدا في أشـد المواطـن ازدحامـا. إن ضياعنـا وسـط مدينتنـا وإحساسـنا بالوحـدة مرهـق. هـذه صحراؤنـا، لقـد اسـتطاع دفء الإنسـان فيهـا أن يمـلأ أطرافهـا المترامـية فخلقـت مجـدا مـن القيـم.

توقف ليرى صدى حديثه. رأى ما يسره فاندفع:

- خـلاء ممتـد لا شيء فيـه إلا صـوت الإنسـان فأشـاع قيـما خلقيـة خالـدة: نجـدة. تعاضـد. كـرم. حتـى التكافـل الاجتماعـي وجـد مجالـه الـذي لا ينكـر، كل هـذا معتمـد

عـلى منطـق العـصر الرفيـع.

إن دفء صـدر الإنسـان يفـوق كل خيالـه، ضـع أخـاك الإنسـان عـلى صـدرك فسـتكون الحيـاة شـيئا آخـر.

ودب حماس وجد صداه في حنجرته:

- أمـا نحـن فنعيـش في غربـة، كل هـذه السـيارات وهـذه الكتـل البشريـة لم تـزل وحدة الإنسـان، إننـا نشـعر بقشـعريرة الانفـراد والتوحـد، كلـما ازداد الازدحـام بـرزت هـذه الوحـدة. عجبـا كيـف يكـون الإنسـان وحيـدا وسـط هـذه الكتـل؟! علينـا أن نعـود إلى التواصـل... إلى الفطـرة.

أراد أن يلتقـط أنفاسـه ويتابـع بريـق فكـرة خطـرت أمامـه، فالتقـط الحديـث، أحدهـم داخـلا دخـولا مناسـبا:

- نعـم... نعـم منطـق سـليم، وممكـن أن نضيـف إلى مـا قالـه الزميـل حينـما نتابـع النظـر في هـذا المـوروث الإنسـاني العظيـم الـذي بـدأ يتـسرب مـن أيدينـا...

وبابتسـامة آسرة اختطـف طـرف الحديـث قبـل أن تفلـت الأنظـار منـه أو يتجـه الحديـث اتجاهـا مغايـرا لمـا يريـد، وبمقـدرة تأثـير لا تضاهـى قـال:

أنـا معـك! معـك فيـما تقـول! مـا تقولـه حسـن، ولكـن علينـا ألا نعيـش في خـدر الماضي. لم أرد أن أمجـد المـاضي، ولكـن أريـد أن «أعـصرن» هـذه القيـم، فيجـب أن نعيـش العـصر ونتفهـم منطقـه، وأن نحيـي إنسـانية الإنسـان: هكـذا، مثقفـون يحسـنون صناعـة المجتمع بتعاونهم.

وكانـت لاتـزال في عينـه ابتسـامات الإعجـاب مـن عيـون جميلـة وهيئـات محترمـة... وراح خيالـه يضخـم ويسـتعد ويرتـب ويسـتشرف لقـاءات أخـرى مشـابهة، سـيقول شـيئا كثـيرا، منهـا... هنـاك مغامـرة صغـيرة بـدأ خيالـه يرتبهـا، واسـتمر...».

وصرخ الجرس!

الصـوت الصـارخ يشـق حجـاب الأذن مـن جهتـين، فلـم تعـد السـماعة وحدهـا، فقـد تجـاوز الألم الوسـيلة وأصبـح يمـزق السـكون.

أحس بالتخاذل وأرخى الخوف والمفاجأة كل منصلب في جسده.

- قل لي... ما بك؟ أخبرني؟

- افتحوا الباب... الحقوني. سأموت. آه. يا ناس!

لم يجرؤ على ضغط زر الفتح، ودب الوهن في ركبتيه، لسانه يصطلك متخشبا بين فكيه .

- لم تقل... ما بك. قل لي.

- سأموت... ساعدني الله يسترك.

- هل ضربك أحدهم؟

- آه. آه. سأموت... أموت... افتحوا الباب.

لم تقو يده على ضغط الزر، أهوى بالسماعة في مكانها، نظر إلى زوجته:

- أحدهم يصرخ!

حاول أن يمد يده المترددة إلى التلفون:

- افتح الباب؟

زوجته بتردد تقول:

- انتظر، أنا خائفة، تمهل...

- تجمد الموقف، إيقاع الصوت المتحشرج يطل بين لحظة وأخرى يمزق التجمد.

تحركت زوجته.

- نتصل بالنجدة. أحسن. الرقم؟

- في الدليل.

زوجته تبحلق وهي تدير الأوراق بسرعة، وقف ينظر إليها وقد داخله العجز والصوت الآتي من بعيد يدوي في الأذن.

- ها هو الرقم!

زمن بطيء لا يتحرك، لا أحد يجيب والاتصال مستمر. أزاح الستارة ومد بصره في الظلام نحو الباب فازداد الصوت المتألم حدة، عليه أن يفعل شيئا.

- أخرج إليه؟

- انتظر. أحاول الاتصال. أخشى أن تكون مكيدة. نحن في مكان منعزل. وانهمكت.

صوتان: التلفون وصرخات الفزع المتقطعة، عينان تنظران في الظلام.

تضخم ذهنه بأفكار تلح عليه، هي حقا مكيدة، فعلا لماذا لا... هذه محاولة لاختطافه، تذكر جهوده الطويلة، مواقفه التي تميل أحيانا إلى الحدة حين تفرضها حمى الجموع المتراصة. هجم عليه خاطر لموقف قديم حينما تصلب وقال كلاما خطيرا مع شكه ببعض الحاضرين، إنها عيون ناقلة أخبار. رغم هذا فقد تخلى عن حذره، دفعته حماسة متوقدة فتجاوز أكثر المتعاقلين، وكان المد معه. يومها حث على إشاعة الإحساس بالإنسان وإلغاء كل تمييز، وهذا لا يكون إلا من خلال الموقف السياسي الواضح الذي يسعى إلى طرح الحلول الاجتماعية. وقال علينا واجب تجاوز الخوف، فنحن نعيش مع الآخرين ولهم، ولا بد من أن نجعل المعايشة نامية متطورة بدلا من أن نتركها تتلاشى وتموت، لذلك لا بد من التضحية بالنفس والذوبان في الآخرين، ولا يكون هذا إلا بنسيان الذات وبلورة المواقف بوضوح ووضع النقاط فوق كل الحروف، فشجاعة مواجهة المواقف الدقيقة تؤكد وجودنا وأننا جسم حي.

إذن هذه هي القضية لا غيرها. مكيدة، ذاكرته النشطة تضيء بالأخبار المستترة التي تناقلتها الشفاه. الخطف المجهول. مع ظلمة الليل تمتد أيد بكيفية يجهلها فإذا الإنسان في عالم المفقودين. ولا خبر عنه. هذا مؤكد، لعل الخطة وضعت في ذلك اليوم حينما تجاوزت إشاراته الحدود المرسومة، دمهم بارد وحبلهم طويل، إذن عليه أن يحذر.

وتخيل الحيرة والألم اللذين ستصاب بهما أسرته. سيكون حديث الناس حين ينتشر الخبر في كل مكان، سيبحثون عن صورته «ها هو. كان رجلا صلبا». لعلهم يبحثون عن الأسرار التي كانت وراء هذا الاختطاف... وهو إلى أين سيأخذونه. أصابته قشعريرة. أن الذين اختُطفوا من قبل لم يسمع أحد عنهم شيئا.

زفرت زوجته بعصبية واضحة:

- أين هؤلاء. أولاد...! لا أحد يرد. نجدة ماذا هذه؟

الصوت المتألم يعود بعد خفوت، لا بد أن يتشجع، لا يمكن أن تكون هذه مؤامرة. ذلك الموقف لم يكن بالخطورة، ولو أرادوا أن يصنعوا شيئا لا يكون بهذه الطريقة

المفضوحة، إنها أغرب طريقة. هل هي طريقة للإرباك. لا. لا يمكن. الصوت المتألم صادق فلا يمكن أن تكون هذه مكيدة.

- إذن أخرج إليه؟

قالت زوجته:

- انتظر، آتي معك. سألبس الروب.

التقط السماعة مرة أخرى.

- لم تقل لي بعد... من أنت؟

- حارس... أنا جاركم... حارس المبنى المجاور.

- ما بك... هل أحد ضربك... أنت مطعون...؟

- آه. ساعدني!

مؤكد أن أحدهم تفرد به وطعنه فهو وحيد في ذلك المبنى الضخم، أحدهم طمع فيه فعلا، إذن، وتخيل الصورة:

منحن، بل يزحف على الأرض، يده ترتفع إلى حيث مفتاح الجرس المتعلق، الميل يزيد من ألمه. في منتصف الظهر غار نصل سكين حاد، جزء منه يلمع مع بقايا الليل والدم يتدفق فيسيل على الأطراف، يستلقي على وجهه، كله ألم مبحوح مرعب، قوته الخارقة ساعدته على أن يزحف حتى وصل إلى عتبة الباب.

لا... القاتل لم يكن طامعا، ليس هناك ما يستحق السرقة؛ فالمبنى جديد وخال. إذن!... هو الثأر نعم، الثأر، بلد الحارس يكثر فيها الثأر. وتذكر حكاية حارس قديم، كان يحرس منزلا مجاورا منذ زمن بعيد، لقد عرفوا كلهم حكايته، لقد أهوى بفأسه على منافس له. لم تستطع أسرته الكبيرة حمايته، قال له عمه:

- لقد قتلته غيلة، لن نحميك، لا تضطرنا إلى تسليمك لهم.

اهرب فهم لن يتركوك. أنت مطلوب ولا حماية لك.

لقد رآه منذ شهر وقد تهدل فيه كل جزء منه، لم يعد يرى شيئا، حالته التعسة أثارت شفقته، لقد عم الثراء بلده، ولكنه لم ينل نصيبا وحيدا بعد أن نزحت أفواج أبناء بلده الذين غادروا لينهلوا من الثروة الطارئة وبقي وحده تتابعه جريمته القديمة.

لقد زال بعض خوفه ولكنه لا يستطيع العودة. ثلاثون سنة لم تمح جرح الدم.

لماذا لا يكون هذا الحارس مثله، شباب قوي، رجولة واضحة، وعين حذرة، خطوط الجروح في الوجه كلها تؤكد ما يذهب إليه. نظراته تدل على مكر وخبث واضحين. لعله فعلها. ولكن طالبيه لم يصبروا. ساعدتهم الوسائل الحديثة على إدراك ثأرهم، طعنوه. لعلهم لم ينجحوا كل النجاح.

إذن سيتبعونه ويغرسون خنجرا مرة ثانية، في هذه المرة في القلب تماما.

إذن الأمر هكذا، لا بد أن يكون الوضع كما تصوره، ماذا لو كان مطاردوه يجرون وراءه؟

ماذا يحدث لي؟ قد يصيبني ضرر!

يتحركان دون قرار واضح، بادرت زوجته، حينما قالت باهتمام واضح:

- نخرج لهذا المسكين!

تحركت وتبعها، حاول أن يتقدمها إلى ساحة المنزل مبديا تشجعا واضحا، يرتفع الصوت المتحشرج، كان قويا كما كان يشق صمت كل شيء.

- آه! آه! يا ناس... آه!

- أيقظي الخادم...

- هذا حسن، اثنان أحسن من واحد.

- وذهبت... الحذر واجب، لا بد أن يكون الإنسان منتبها لما حوله، الموقف مخيف ويحتاج إلى دقة في التعامل، يجب ألا تكون حركتنا ردة فعل سريعة وتابعة للأحداث لا صانعة لها، حينئذ سنقع فيما لا نحب. إنهما لم يعودا بعد، هذا الخادم لا يشبع من النوم، هم هكذا دائما، أصبح الآن يواجه الصوت المتألم، لم يستطع الاستمرار في التوقف، الصوت يأتي من الباب الرئيسي. ليتجه إلى الباب الآخر ليفتحه ببطء وينظر، إذا كان في الأمر ما يريب سيكتشفه ويكون لديه متسع من الوقت ليقفله مرة أخرى... ببطء وحذر سار نحو الزاوية البعيدة، فضل أن يرفع رأسه وينظر من بين قضبان السور، أمال رأسه ونظر. كان الرجل منحنيا ومتكئا على عمود النور الخارجي، يده على صدره وقد التوى كل شيء فيه، أنينه يثير جلبة فيما حوله. كل

المنـازل صامتـة يلفهـا سـكون آخـر الليـل. لم يـر خنجـرا، هـل هـي المكيـدة، إنـه يتـألم. تحـرك مقتربـا في محـاذاة السـور، أخـرج كلمـة متنحنحـة مـن داخلـه:

- ما... ما بك؟

وجاء صوت ارتفع أمله بقوة:

- ساعدني... سأموت!

وانفتـح البـاب، كانـت زوجتـه مندفعـة ووراءهـا الخـادم، مـدت يدهـا وأسـندت الحـارس، وفي البعيـد شـبح رجـل قـادم وامـرأة تجـري وراءه، دبـت حركـة وانبعث نشـاطه المعهـود فأسـند الحـارس بقـوة، فألقـى ذاك بثقلـه عليـه:

- صدري يتمزق.

قالت زوجته:

- هل تحس بخدر في يدك اليسرى؟

- لا أستطيع التنفس...

- لعلها أزمة قلبية...

- سأموت... ضاع أولادي...

قال الرجل الآخر:

- اذكر الله... اذكر الله...

تكاثرت الأيدي واقتربت سيارة مسرعة.

بعد ساعتين عاد والرجل بجانبه معافى، التفت إليه وهو ينزل:

- اهتم بنفسك... لا شيء بك!

مع النور الأول مع الفجر كان منتصبا ثابتا، يقول لزوجته باعتداد ووضوح:

- لا شيء. حساسية... لقد أكل سمكا لا يناسبه... إنه الضعف البشري!

وراح يرتب الأفكار في ذهنه حول ما حدث.

ليلة القهر

عيناها تغازلان الزجاجة المنسية قرب المغسلة، رغبة عنيفة تحثها أن تندفع إليها، تفتحها، ترش قليلا على كفها الخشن الذي يصك على - ربع الدينار - كانت صاحبة الزجاجة قد أسقطته إليها قبل أن تخرج. فكرت: «ماذا لو أخذت الزجاجة كلها أرشها على جسدي فتفوح رائحتي شهية ككل النساء؟».

قبل أن تحملها صهوة الرغبة اقتحمت المرأة المكان، اتجهت نحو زجاجتها، التقطتها، دستها في حقيبة يدها، واستلت ربع دينار آخر كمن يكافئها على وجود الزجاجة في مكانها، ثم غادرت بسرعة بعد أن نشرت عطرها في الفراغ.

امتطّت كل أوردتها مثل أنامل رقيقة تجمع ذرات العطر المنتشرة وتسري بها من الأنف إلى الرئتين المتخمتين بروائح المراحيض، لكن ريح الخيبة بصدرها بددت كل العطر.

منذ أن بدأت عملها المتواضع - ناطورة لحمام النساء في المطار - وأنفها يتنشق سواد الهواء المعتل ويدلقه في قصبات صدرها فلا ترطّبه غير ذرات العطور القادمة والمغادرة.

تجلس على كرسيها البلاستيكي، وبعينيها الذابلتين تتابع المشهد اليومي: نساء يدخلن بملابسهن الأنيقة الملونة، فتيات ببنطلونات الجينز الضيقة والبلوزات القصيرة، كلهن عجولات للتخلص من «حَشرهنَّ». تلتقط أذناها حفيف ملابسهن وهي تنزلق عن أجسادهن، يتبعها خرير «المثانات ومخزون الأمعاء»، ثم ينفلت «السيفون» بشلاله ليجرف البقايا ويترك الروائح منتشرة.

يخرجن من المراحيض ليتزاحمن على المغسلة، يشطفن أكفهن المزينة بالخواتم، يتأملن وجوههن في المرايا، يصبغن الشفاه، يوردن الخدود، يخرجن أمشاطهن الملونة، يسوين خصلات شعرهن المتناثرة. وآخر اللمسات تلك الرشات المتتالية من عطور الزجاجات الشفافة يخرجن بعدها مسرعات ملبيات النداءات المتكررة: «على جميع المسافرين المتجهين إلى (...) التوجه إلى بوابة رقم (...)».

تبدأ عملها بالتقاط الأوراق المتناثرة على الأرض، وتلك المكومة فوق أغطية سلات المهملات، تنظر في الأحواض البيضاء، تكشط بالفرشاة ما علق بجوانبها، تصب

قليلا من الديتول، تمسح الأطراف، تسوِّي الرولات المتهدلة، مهيئة بذلك المكان لقادمات أخريات مستعجلات. تعود إلى كرسيها مؤملة بكرم بعضهن، ربع دينار، نصف دينار. أو فكات معدنية. وكثيرات يخرجن غير مكترثات بوجودها ولا بحلمها الذي لا يهدأ ولا يبور؛ فتهمس لنفسها كل مرة: «ذات يوم سأمتلك زجاجة عطر».

حين تخرج إلى الشارع، بعد انتهاء عملها، تتراكض إليها روائح السيارات والبشر والأطعمة متمازجة، لتتراكم داخل أنفها، فتحسها أشهى من رائحة نهارها الطويل داخل الحمام. وحين تفتح باب الملحق البائس الذي تسكنه، تحس بروائحه المكبوتة تهب إليها كأفواه مفتوحة تنفخ ريحها لتطرد روائح الشارع فلا تبقى سوى رائحة الحمام اللاصقة بجسدها وملابسها.

في الليل يسيّجها قهرها، تحاصرها صور النساء بزينتهن وموديلات ملابسهن، تكتم آهة، وتستل شهيقا لعلها تصطاد ولو ذرة من روائح عطورهن، لكنها تصطدم برائحة زوجها الشاخر بقربها تعبِّئ رئتيها برائحة دهن (السمبوسك وكبة البطاطا) التي يتشبع بها، حيث يعمل في المطعم الهندي. تتحرك وتكبت أفواه حسرتها:

«بالتأكيد هو يشم بي رائحة المراحيض».

تمتطي حصان التمني، تتخيل أنها ممسكة بزجاجة عطر؛ فيبرق حلمها المكنوز: «حين أرش منها على جسدي ستطرد كل روائحنا. سنلتصق ببعضنا أكثر». تنام وفي دهاليز الأحلام تجد نفسها تطارد عشرات من الزجاجات ذات الأجنحة.

ذات يوم أسقطت في كف امرأة الحمام - دينارك - تصورتِ أنكِ وهبتها ثروة لكنها ردته إليكِ وفاجأتكِ:

- أريد زجاجة عطرك.

قصدتِ أن تنبهيها لحال واقعها وكفك تمتد ثانية بالدينار:

- الدينار أفيد لك من العطر.

لكنها أصرت على رفضه والتمسك بطلب العطر، لم تحتملي سذاجة تطلعها الأعوج وعيناك تسريان على ثيابها الرثة، وغطاء رأسها ذي الحواف المنسولة، حال

لا يناسبه عطر كعطرك. شعرت بإحساسك المرصود ضدها، مسحت على ملابسها بهدوء مقصود وهي تركز على ثيابك الأنيقة، أردت أن تذكريها بشيء غير الملابس، بحركة دائرية من كفك أشرت لمساحة الحمام، أطلقت صوتك قاصدة أن تكبتي رغبتها الشبقة إلى العطر:

- ماذا يفيدك العطر وأنت هنا؟

ابتسمت لك بتودد بارد نثرت كلماتها بتوسل لا يخلو من رغرغة دمع مكتوم:

- أرشه في الليل ليجذب زوجي.

أسقطتك في دائرة الدهشة والحزن. شعرت دبابيس الندم تغتال لدانة قلبك. لم ترددي. أخرجت زجاجتك الصغيرة ومنحتها لها، انحنت بفرحها إلى كفك الرشيقة لتقبلها، لكنك عاجلت بجذبها وفررت ملبية نداء الرحلة. وكنت في الواقع تفرين من ذكرى تعشّبت طحالبها في بحيرة حياتك. والآن تفجرت أمامك تلك السنوات التي كانت بمرارتها أثقل من ألف عام.

دفعتكِ امرأة الحمام غير قاصدة أن تفكي أحزمة ذاكرتك في اللحظة التي أنهيت ربط حزام الأمان في الطائرة. أسبلت جفنيك، وشرعت تستعرضين ليالي القهر الموجعة التي كانت تمضي وأنت مركونة في زوايا الفراش، مغموسة بسوائل غضبه اليومية. يعوفك وأنت أشهى من تفاحة وأنضر من زهرة. أنت التي تشهاها وتمناها ورغم كل الذي تناهى إليك عنه: «إنه زير نساء، عاشق للشراب، أناني وعصبي المزاج». إلا أنك تشبثت برأيك. همت بوسامته وعذوبة لسانه. جذباك نحو لجينه الشفاف المخادع. غرورك هو الآخر أغواك: «بجمالي وذكائي سأختصه دون كل النساء وسأعدل ضلوع حياته العوجاء».

سرعان ما اعوجت أيامك وتكسرت أحلامك، لم تأسريه وتستأثريه، كنت تشتمين عطورهن في ثناياه، تغسلين آثار المساحيق البائتة على ثيابه، تتخيلين أشكالهن ولا تعرفين إن كنَّ أجمل منك أو أذكى. لكن فجيعتك كانت لحظة اكتشافك علاقته بأقرب صديقة إليك، تلك التي تعرفين وجهها، تفاصيل جسدها، ورنَّة صوتها.

اشرأبت أمامك دون كل الليالي. تلك الليلة التي دخل فيها البيت منتشيا بخمرته، لكنه على غير عادته يحمل في يده رزمة ملونة. فاجأك فرح مسَّ عروق آمالك المسحوقة ترنّم سؤال بداخلك: «هل تذكر وجودي فاشترى لي هدية؟»، انتظرته حتى ولج الفراش وعاظ شخيره، استحوذك فضولك الشرس أن تفتحي الهدية. أذهلتك الزجاجة الفاخرة. فتحت الورقة الوردية، قرأت إهداءه العذب لصديقتك الخائنة: «عطرك المفضل الذي يدوّخني ويجعلني أسيرك دائما».

تهاوت عروق أملك، طحنتها ألف رحى فصارت مثل ذرات غبار أهوج حاصرك، أشعل فتائل غيرتك الخامدة، ولسع روحك بأمل غبي: «ماذا لو أسرتُك به أنا الليلة؟».

دخلت الحمام. دعكت جسدك البض المهجور لأكثر من شهرين، ارتديت قميصا سماويا شفافا. أمسكت بالزجاجة وسكبت نصف عطرها - الآسر - على أنحاء جسدك حتى أصابع القدمين. اندسست تحت اللحاف، تعمدت تجاوز المسافة الفاصلة بينكما، وفي جسدك تستثار براعم الرغبات. ما كدت تستقرين حتى انتفض من نومه الثقيل كالملدوغ. رفرف قلبك وفاحت أمنيتك: «سيرويني بعد القحط، ويقطف ثماري الناضجة، إنه لعطر ساحر حقا».

أرعبتك ردة فعله المتوحشة، انهالت كفاه تمزقان السماوي، وترضان مرمرك المكشوف وصراخه: «كيف تجرأت على عطرها؟»، صراخ فلق ألف بركان، أطاح بالعطر، فما عدت تشمين غير سموم الدخان. قذفك من الفراش. دككك بقدميه على الأرض التي استغاثت من الألم قبلك، بصق، شتم، وسحلك إلى الحمام، قذفك بقلب البانيو، أفرغ عليك علبة مسحوق الغسيل وبعض ما طالته يده من سوائل التنظيف. أخذ يغرقك بماء الدش الحار ليزيل عن جسدك كل أثر للعطر، وأنت مثل سمكة تنازع في حوض ماء خابط.

صفق الباب، وأمضيت ليلة القهر الأصعب من ألف قهر داخل البانيو غارقة بسوائلك والعذاب. كم مضى الآن منذ أن انتزعت روحك من بحيرته الآسنة هادلة ستائر النسيان السميكة على روائح قهرك القديم؟

خرجت من الحمام إلى الشارع، فرحتها أوسع من مداه، أنفها المهيأ لشم العطر يذري مزيج الروائح المعتادة، هو نهار غير كل النهارات، وليلة منتظرة ستكون غير كل الليالي. شعرت بامتنان كبير لتلك المرأة. لم تندم أنها رفضت دينارا هي بحاجته.

إنها الآن تقبض على الحاجة الأثمن والأشهى. تطير وتحلم غير عابئة بزحام الطريق. ولولا أن زعق بوق السيارة المندفعة لكانت العجلات داستها بالأسفلت. شدت على حقيبتها المتهرئة، حيث تلبد الزجاجة كأنها قلبها الذي خشيت عليه من الموت. وصلت إلى موقف الباص، جلست تحت مظلته، واستخرجت كنزها الثمين تناجيه: «تلك الزجاجة! آه كم حلمت بها» تأملتها. داعبتها. رفعت غطاءها الذهبي، ألصقتها بأنفها، كادت تضغط الرأس المستدير لترش منها لولا أن أقبل الباص وتدافع إليه أمثالها من العمال الآسيويين وغيرهم من جنسيات أخرى.

اكتظ الباص بروائح التعب وعرق الصيف المبيت في الأجساد المنهكة متمازجا بروائح شعور مدهونة - بالحل(1) - ومن الأقدام التي اختزنت حشواتها الحامضة، من أفواه تزفر جوف المعدات التي ألفت التوابل والآش والكاري. كلها تقتحم أنفها المعبّق أصلا برائحة ثيابها وجلدها المعجونين برائحة حمّام المطار.

فكرت في كنزها المحفوظ في الحقيبة، استخرجته، أرقدته بطن كفيها المتلاصقتين، بدت مثل أم تحضن رأس وليدها. انفرجت ابتسامتها وهي تتأمل الزجاجة بحنان مشبع بالرغبة أن تفتحها. تبلل طرف إصبعها بالعطر، وتمسح أرنبة أنفها لتحجب عنه رائحة الباص.

تحرك الرجل الملاصق لها في المقعد. اصطدم كوعه بذراعها فاهتزت، أطبقت كفيها خوفا على الزجاجة وألصقتها إلى صدرها؛ فبدت كأنها تتلو صلوات مقدسة.

دخلت ملحقها، ولأول مرة تشعر بأن شيئا جديدا غاليا يدخل معها، سارعت باستخراج زجاجتها، أشبعتها بالقبلات، وصدرها يكرر بفرح لم تعهده، نثرت تسابيح صوتها تغازل الزجاجة: «أخيرا يا حبيبتي امتلكتك وسيعرف جسدي رائحة غير

رائحته. آه... شكرا لك أيتها المرأة الكريمة». دارت في المكان الضيق تراقصها تغني حالمة بليلة غير تلك الليالي.

من أين لها أن تعرف سر العطر ومعناه وأصول التعامل معه؟ هي تجهل حتى كيفية الاحتفاء بخطوته الأولى إلى بيتها، وبرشتها الأولى الأكثر شبقا وهي تصب على جسد بكر من أي عطر. لم يخطر ببالها أن تستحم لتكشط عن جسدها أنواء روائحه المتراكمة، ولا أن تغير ثوبها الملطخ بعثرات الأيام، وروائح الحمّام ودبق المطبخ. لم تمشط جدائل شعرها الملبدة بدهنها القديم، ولا أن تزين الوجه الذي اعتاد غبار الطبيعة ودخان الحافلات. فرحها المشدوه وحلمها الملهوف استلباها. وفي لحظة القرار بالتعطر تحولت الزجاجة بين يديها إلى ما يشبه مبيدا حشريا يلاحق طنين ذبابة ثقيلة الظل، صارت هي الذبابة تدور وترش نفسها بعشوائية لا تفرِّق بين مناطق الجسد والشعر والثوب. صوت الرشيش السريع يتمازج بضحكاتها، غنائها، وتنهدات فرحها الأول. أفرغت كل الزجاجة، بقي في القاع قليل لا يصل إليه الأنبوب الساحب، أصرت على ألا تترك نقطة منه، أحضرت يد الهاون كسرت عنق الزجاجة وتلقفت النقط الأخيرة لتمسح بها شعرها ووجنتيها، غير عابئة بذرات من فتات الزجاج المكسور تخدشهما. قررت ألا تقوم بأي عمل. وارتاحت على فراشها القطني مؤملة النفس أنه لن يستدير عنها بحجته الليلة «أنا متعب». الليلة سيجرفه تيار العطر إلى جسدها الجائع، ستداويه من ألم الصبر والانتظار. وبهذا العطر الساحر ستجعله يفرغ مطره المكتوم ويرش بذاره المخزون.

حين اندس في الفراش يشخر من التعب - كعادته - شعرت برأسه كمن يطرد أفكارا عبثية ويرفس بقدميه كأنه يدفع بفأر أو صرصار تسلق عليهما. ثم سمعته ينشق نشقات متتالية سريعة كمن يبحث عن مصدر رائحة ما! أدركت أنه اكتشف رائحة جديدة. اغترّت أنها استثارته، وبكل غرورها اقتربت منه، التصقت بظهره فاهتز... ولم يستدر. نطت عليه، قابلته بكل جسدها وتصورها الواثق أنه سينط عليها مجذوبا لعطرها وولهانا لجسدها. لكنه زفر زفرتين واستدار إلى الناحية التي أخلتها. وظلت حركته غير مستقرة وتنشقاته وصلت حد العطاس. شكت في

أمـر العطـر: «هـل يمكـن ألاّ يشـمّه أحـد غـير الـذي تعطـر بـه، أم تـراه مصابـا بالـزكام؟» فجـأة اسـتدار نحوهـا. وفي لحظـة مخطوفـة لا مسـاحة لهـا مـن الزمـن. اللحظـة التـي زغـرد فيهـا قلبهـا. تهيـأ جسـدها. ارتعـش جوعهـا. انفلشـت ابتسـامتها وصـدح حلمهـا، جـاءت صرختـه لتنـزل عليهـا كالبـلاء:

- رائحتك الليلة كريهة لا أطيقها... قومي اغتسلي.

شـعرت بـكل جسـدها يهـوي إلى جـب عميـق. تفـوح منـه روائـح حمامـات غـير مهجـورة. تسـللتها الرائحـة مـن أخمـص قدميهـا إلى كل الجسـد. جرفـت كل أثـر للعطـر. واحتلـت مكانـه الشـاغر.

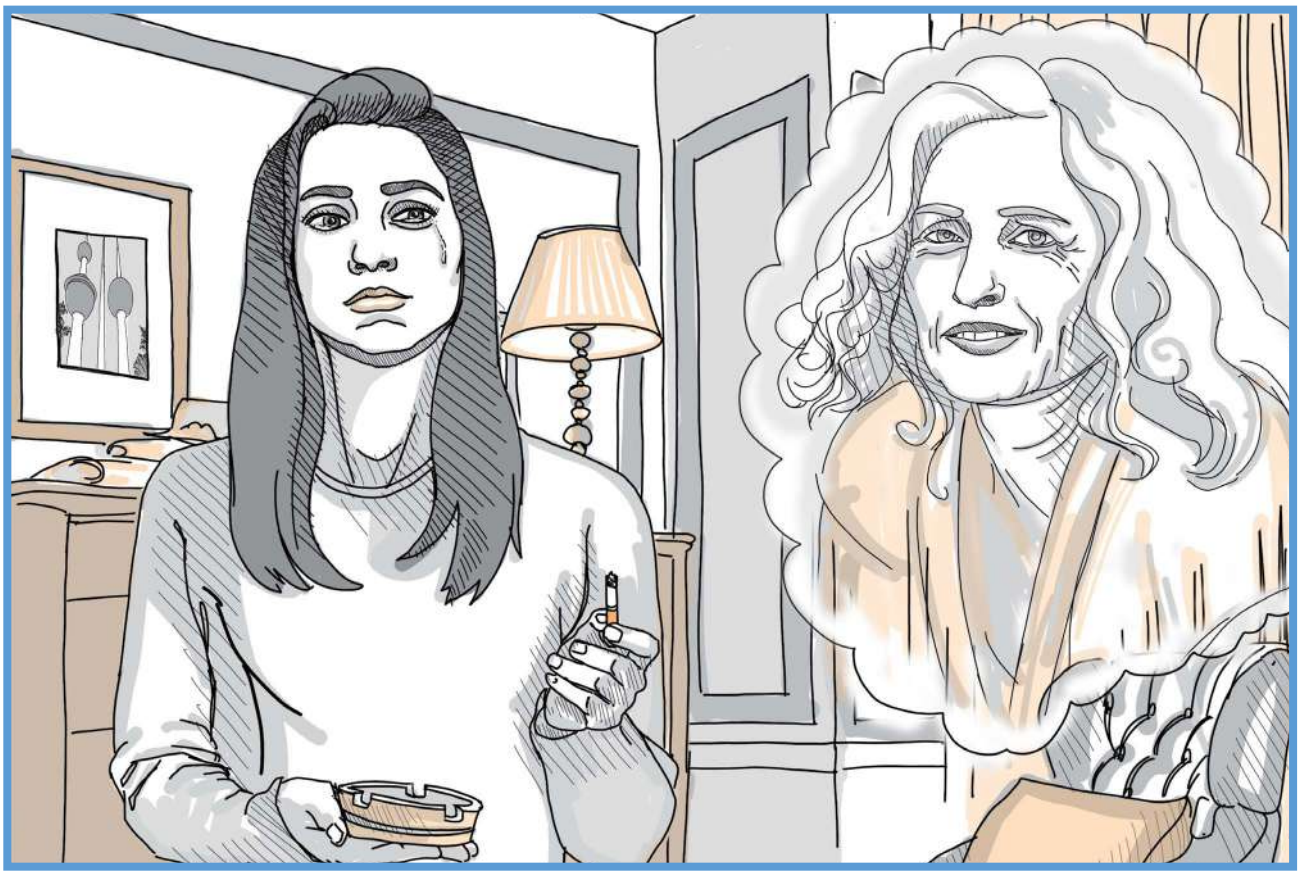

سيجارة أمي

تركتْ أمّي في منفضتها (على غير عادتها) عقب سيجارة واحدة.

كانت رائحة غرفتها التي لم أدخلها منذ أسبوع مُشبعة بالرائحة التي طغت على عطرها وبخورها اليوميّ. صرختْ الآهات في روحي وتوجّعتْ كلّ أوردتي وأنا أسترجع تاريخ كراهيتي لهذه السيجارة الملعونة التي كانت تدفعني لتعذيب أمي وحَبْكِ خططي للتخلص منها. أدرك الآن كم كنت قاسية وأنا أتّخذ مواقفي العدائية ضدَّ سيجارتها من دون مراعاة لمشاعرها.

أذكر يوم أقبلتْ ذات نهار لتزفَّ إليَّ خبرا سعيدا، فلم تكدْ خطوتها تقترب من باب غرفتي حتى انتصبتُ أمامها لأمنع دخولها وبصوتي الغاضب:

- لا تدخلي بسيجارتك.

تبخّرتْ الفرحة من وجه أمي، أشحبته خيبة حزينة، أخذتْ تبحث عن منفضةٍ فلم تجد واحدة قريبة فأسرعتْ إلى المطبخ، فتحتْ الصنبور ودلقتْ الماء على رأس السيجارة؛ فصدر الصوت الذي تحبه أمي «تش تش». لم أشعر بتأنيب الضمير، قلت في سرِّي: («أحسن لقد رحمتها من شرها»).

لكن أمي لا ترحم نفسها ولا تريد أن أرحمها، فلا أجد وسيلة للاستداد من عشقها المتورِّم للسيجارة إلا بالضغط عليها وأحيانا بعنادها. ذات مرَّة طلبتْ مني أن أوصلها بسيارتي إلى بيت خالتي، فاشترطتُ عليها ألاّ تدخِّن. أذعنت أمي لأمري، جلست بقربي صامتة، وكنت أدرك سرَّ صمتها؛ فالشوق إلى سيجارة جعلها كمن تجلس في مأتم. كانت المسافة إلى بيت خالتي طويلة، فشعرت بالألم يعصر أوتار قلبي حزنا عليها؛ لكنني قاومته، ثم أشفقتُ عليها فادَّعيتُ أنني بحاجة إلى دواء من الصيدلية. أوقفتُ السيارة وقبل أن أبتعد قلت لها:

- ماما... تستطيعين الخروج من السيارة وتُدخِّني قبل أن أرجع.

كانت بداية الشتاء، الهواء بارد والريح شديدة، نظرتْ إليَّ وقالت بصوتها الكاظم غيظه :

- كيف أشعلها في هذه الريح؟

حين شعرتْ بأنني تألمتُ لأجلها ربَتَتْ على كفي وهمست:

- أستطيع أن أصبر.

صبرتْ أمي كثيرا وتعامتْ عن أفعالي التي تُمْعِنُ في مطاردة سجائرها. مرّات عديدة كنت أسحب بعضها من «الباكيت» وأرميها.

فتحتار أمي حين تجدها ناقصة. وتظلُّ في ذهولها لدرجة الوسواس:

- شيء غريب... هل في بيتنا جنيٌّ يُدخّن؟

مازحتها:

- هذا جنيّ يكره رائحة الدخان فيسرقه.

لم أشفق على أمي، تركتها تعاني وساوسها، وحين اكتشفت فعلتي تصوَّرتها ستثور وتعاقبني بخصامها. لكنها عاتبتني بحنان جعل قلبي يتكوّر حتى كاد يتقطع:

- أعرف أنك تكرهين السجائر، لكن! هل تكرهين أمك إلى الحدِّ الذي تعذبينها فيه؟

هذا العتاب اللَّين لم يردعني. أوغلتُ أكثر في اعتداءاتي. صرتُ أهرس السجائر داخل الباكيت، لكن أمي لم تحتمل، استشاطت وصرخت: - لِمَ تعتدين على أشيائي؟ هل تقبلين أن أدخل إلى غرفتك وأتلف لك شيئا تحبّينه؟ لو فعلتِ هذا ثانية سأقتلك!

هل تحبُّ أمي السيجارة لهذا الحدِّ رغم اعترافها بأنها تتعبها؟ بدأتُ أبحث عن طرق أخرى مُسالمة لأمنعها عن التدخين.

أحضرت لها كُتيّبا عن أضراره مليئا بصُوَر مخيفة لرئاتِ المدخنين. قلّبتْ في الكُتيّب ثم ألقته وأشعلت سيجارة أخرى، بينما الأولى لاتزال في منتصفها.

في الصباح أصحو قبلها لأفتح نوافذ الصالة والمطبخ وغرفة الضيوف. أطرد رائحة الدخان المتخمِّرة، أحمل المنافض الحُبلى بالأعقاب فأحسُّها مثل وعاءٍ لمريض السّل مملوءة بالبصاق والنخام.

أرميها في كيس النايلون وأغسل المنافض بالديتول وأعيدها مرغمة إلى أماكنها كأنني أجهِّز السمَّ لأمي.

كم أحبُّ أمي... كم أشتهي أن أقبّلها وأرتمي على صدرها لأشمَّ رائحة أمومتها.

لكن رائحة السجائر العالقة بثغرها وملابسها تدحْرجُني عنها. حتى شعرها يفوح بها. يوم كانت تُعدُّ طبق السّلطة وطلبتْ منيّ أن أرفع شعرها بالمشبك فاحت رائحته وأزكمتني. وحين شمَمْتُ يدي كانت الرائحة قد تسربت إليها، لا أنسى كم كنتُ قاسية وأنا أفرك كفي بأنفها وأصرخ:

- شُمّي... شُمّي!

توجّعت أمي:

- آي... خنقتني.

ابتعدتُ لأغسل يدي ونسيت أن أغسل وجع أمي.

أغار من سيجارة أمي... فهي الأقربُ إليها مني، ولهفتها عليها أكثر من لهفتها عليَّ، فحين لا تجد الباكيت تصير كاللبؤة الجائعة الشرسة. وحين تجده يصير وجهها مثل حديقة. كانت تغفو أحيانا على الأريكة وتنساها بين أصابعها، ولولا الصُّدَفُ التي تجعلني أخرج إلى الصالة لماتت أمي محروقة. أذكّرُها بحادثة ابن عمّها الذي وجدوه مُتفحِّما بسبب السيجارة فتردُّ ببرود: - الأعمار بيد الله.

خوفي الدائم على أمي مُؤطرٌ بالترقّب: («هل ستصابُ بالسرطان؟»)، («هل ستموت محروقة؟»).

وحين أتخيّلُ هذا يشقّ الحزن مسراه من الفم إلى المعدة ويُصاحبني غثيانٌ مُرْ.

غيرتي تدفعني إلى طرح الأسئلة الغريبة على أمي:

- لو تُهتِ في الصحراء، فما أول شيء تطلبينه من الله؟ ضحكتْ قبل أن تفاجئني:

- أطلب أن تُمطِرَ السماء سجائر.

كنت قد تصوَّرتُ أنها ستطلب رؤيتي. لكنها آثرت سيجارتها عليَّ.

وذات يوم كنت أقرأ لها موضوعا عن الوصايا التي يكتبها الناس قبل موتهم، وكان فيها أشياء طريفة، حين انتهيت سألتها:

- يا ترى! ماذا ستكتبين في وصيَّتُكِ؟

بلا تباطُؤ وبحماس قالت:

- أن تدفنوا معي سجائر!

استطعتُ أن أتحدّى أمي بشيءٍ واحد، هو امتناعي عن شراء السجائر لها. كانت حين تعطيني ورقة أغراض البيت لأجلبها من الجمعية، تكتب بالخط العريض أعلى الصفحة «سجائر»، فأعود من دونها.

لكن أمي لا تيأس كأنها تأمل أن أنسى مرّة وأحضرها. بكتْ ذات ليلةٍ فقلت لها:

- آخُذكِ إلى الجمعيّة... أنت تنزلين وأنا أنتظر بالسيارة.

لم تمانع رغم أنها عَصبَتْ رأسها من شدّة الصُّداع. كانت ليلة عاصفة ممطرة. نزلتْ أمي ملتفعة بشالها الأسود الطويل تُسرع كأن حبيبا في انتظارها وأنا أراقبها، وحقدي على السجائر أوسع من محيط. فجأة رأيتها تنزلقُ وتنكبُّ على وجهها وتطير طاقيتها الصّوف. هلع قلبي. ركضت إليها وتمنيت لو أقول لها: («عودي إلى السيارة وأنا سأحضرها لكِ»)، لكن أنياب كراهيتي للسجائر انتصرت على حبّي لأمي. ساعدتها على النهوض وأسندتها حتى استقامت بقامتها الرَّشيقة. خرج صوتي برنَّةٍ لا تخلو من ألم:

- سأقرّب لك السيارة عند باب الخروج.

قالت «شكرا» بصوتٍ دامع أغرقني وأغرق مطر الشارع.

كانت أمي تكره أن يزورها الذين لا يدخنون، وتتثاقل زيارتها لهم. تُحبُّ مَنْ يُثيرون معها مهرجانات الدخان. فكرهْتَهم، وكنت أهرب من البيت ولا أعود إلا بعد أن يغادروا مُخلّفين وراءهم عواصف الدخان.

أصابت أمي نوبة قلبية رقدتْ على إثرها في المستشفى أسبوعا دون سجائر، لكنهّا في البيت وبعد ثلاثة أيام لم تحتمل حرمانها من السجائر، صارت عصبية إلى الحدِّ الذي تصوَّرتها ستُجَنْ. أيّ صوت أو حركة كان مثل الرّيح يُثير غبارها وأوراقها ودموعها. وكنت قد انتهزتُ فرصة غيابها عن البيت وتخلَّصتُ من كل «الكروزات» والمنافض، فقد وثقت بأنها لن تُدخِّن بعد أن حذرها الطبيب بكل ما أوتيَ من إخلاص. أمي وعدته أمامي وعدًا جعلني أطير فرحا لأنها ستكون لي وحدي، وسأشُمُّ رائحة الأمِّ فيها لكنها فجعتني. توحّشتْ من شدة شوقها،

وأسرعتْ تبحث عن سيجارة فطار صوابها حين لم تجد. ولأنها واثقة بأنني لن أحقِّقَ مرادها، ركضت إلى شقَّة الجار وأخذت تتوسّله أن يذهب ويُحضرها. تنقلتْ نظرته الحائرة بيننا فقلت له دون حرج:

- آسفة... أنا لا أحضر السّم لأمي.

لاحظ الجار حالتها المؤلمة فقال لي:

- إذا كان السُّم يُسعد أمك، فلماذا لا تُسعدينها؟

لم أسْعد أمي أبدا... فبينما كان ارتشاف السيجارة قمّة سعادتها، كنت أفْسِدُ عليها المتعة بالاعتراضات والتَّذمّر. وأتْعِسُها بابتعادي عن حضنها. ولأنها تعرف السّبب، كانت بعد كل استحمام تناديني وتغمُرني إلى صدرها وتتركني أتمرّغ في حضنها قبل أن تتلوّث بالرائحة.

حين جاءني أول خاطب تمرْجحتْ الفرحة على حبال قلبي، قلت سأرتاح من رائحة السجائر، فصُدمْتُ أن الرجل شرِها كشراهة أمي في التدخين. رفضته وفضلتُ أن يستقرَّ قمري في ظلال حُبّها وهالاتِ دخانها.

كنتُ كلما أصابتها الشَّرْقة أو انتابها موجُ السّعال الحادّ، أحسُّ بأنني أكاد أنطفئ من خوفي عليها، فلا أجد ما أعاتبها به سوى:

- ستموتين من هذه السجائر.

ترد بهدوء وإيمان عجيب:

- لا أحد يموت قبل يومه .

و... ماتت أمي...

لم تَمُتْ من السجائر، لم تمرض بالسرطان، ولا نتيجة انسدادٍ بالشرايين، ماتت وهي تستحم.

حين طال غيابها في الحمّام دخلت لأتفقّدها حسبتها في غيبوبة طلبت سيارة الإسعاف لكن الطبيب أكّد سبب وفاتها:

- ارتطم رأسها ممّا أحدث نزيفا داخليا، ربما زلّت قدمها في الحمّام.

ماتت أمي...

لم تكن أصابعها تترك السيجارة، لم أشعر بأنني وحدي التي تيتّمت، كل سجائر أمي تيتّمَتْ مثلي.

أجلس الآن أمام المنفضة التي ليس فيها غير سيجارة وحيدة لم يكتمل احتراقها. وبكل الحبِّ الذي يسكنني لأمي قرّبتها من أنفي وتنشقتُ رمادها البائت. انزلقت دموعي بصمت واختلطت بالرّماد. نظرتُ إلى بقايا السيجارة الحزينة. تذكرتُ كم كنتُ أطلق نواياي الشريرة ضدَّها وأعذب أمي. أحسسْتُ بالندم ينخرني كما تنخر الدودة في جذع شجرة يابس.

كان طرف السيجارة مُلونا ببعض من روج شفتيها. اشتعل شوقي إليها، إلى رائحتها، إلى تقبيلها، تمنيتُ لو تعود من موتها وتملأ الشقة برائحة سُمِّها، وتفرش كل رمادها على السجاجيد والأرائك والصحون وحتى جوف قلبي.

وجذْتني برقَّةٍ استلُّ السيجارة من المنفضة حارصة عليها من التفتُّتِ، أحنو عليها كما كانت أمي تفعل. قرّبتها من أنفي، استنشقت رائحتها، وبلا تردّدٍ دسَسْتها بين شفتيَّ وامتصصتها حتى التهمتُ كلَّ روج أمي. وضعتها في علبةٍ صغيرة وسكبت عليها الرّماد المُبَلّل بدموعي.

منذ ذلك اليوم كنتُ كلَّ صباح ومساء أفتح العلبة. أشمُّ رائحة أمي و... أبكي.

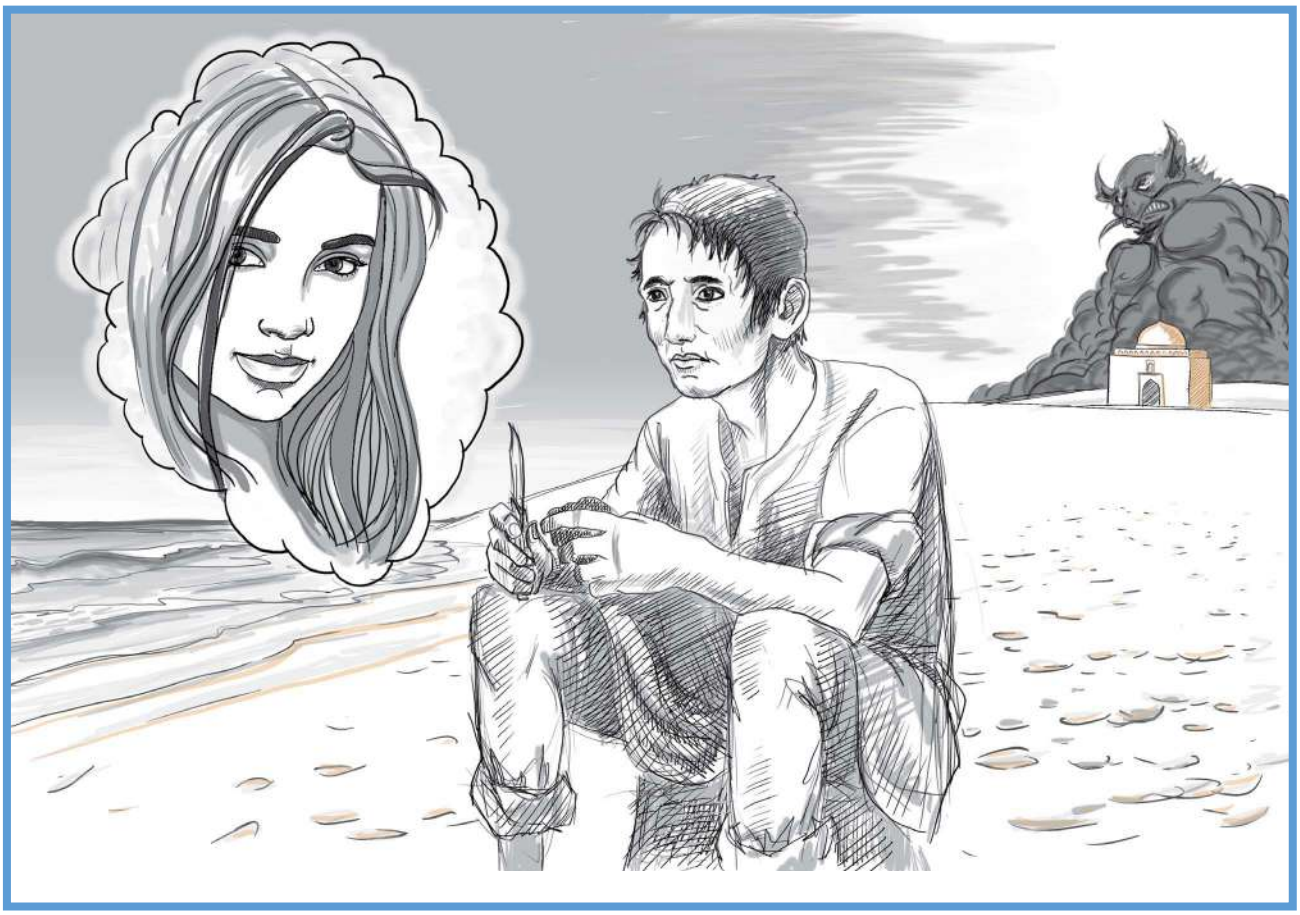

العرق الأسود

الرهبة تنبعث من كل الأشياء المحيطة بي، والليل أبكم، لا يتناسب بكمه مع تلك الضوضاء الدائرة في داخل نفسي المتعبة، لماذا هي متعبة؟ لماذا لا ترتاح؟! لا بد أنها تعرف أنني من تلك الفئة التي صنفها المجتمع البشري ووضعها ضمن طبقة مميزة جدا ببؤسها، ولا تحمل قواميسها كلمة الراحة أو الشبع حتى التخمة.

وقصتي بسيطة لا تحمل شيئا من الغرابة، حتى يخيل إليَّ أنها مكررة ومملة.

والدي تُوفي وأنا طفل لم أبلغ بعد الثانية عشرة، ورثت عنه تركة ثقيلة تتكون من أرملة وخمسة أطفال، كنت أينما ألتفت أرى من حولي أفواها مفتوحة يطل منها شبح الجوع، ساخرا مني ومن عدم قدرتي على هزيمته بعملي البسيط المتواضع.

الجوع، الفقر، كلها بديهيات مسلّم بها، وأحد القوانين الإنسانية في مجتمع الفقراء، وهزيمتها كان وما زال هدفي الأوحد.

لقد عملت في البداية صبي دكان، وكنت أضرب من الصباح حتى المساء من أجل أخطاء اقترفتها، أو ربما اقترفها غيري.

صاحب الدكان يرى أن من حقه أن ينفث عن همومه وكربه، في جسدي المسكين، المتكون من مجموعة عظمية، حادة الأطراف، ناتئة، مشروخة بعصا سيدي، وكان لحم جسدي رغم شحته وضآلته، تغوص فيه بسهولة أصابع سيدي السمينة.

ولم يستطع أحد أن يثبت أني لا أستحق الضرب، وأن سيدي لا يحق له ضربي، فكل القوانين المنطلقة من طبقته تثبت أن ضربي أمر مشروع، والامتناع عنه أحد المستحيلات، وأن الخمس «أنات»(1) التي يمن بها عليَّ، عند نهاية عملي مساء، هي أكثر مما أستحق.

فقد عملت بعد ذلك عند كثيرين، وأخذت أغترف من بئر الحياة خبرة وتجارب، حتى استقر بي المقام في متجر بالسوق الداخلي، عملي هنا يشبه أي عمل آخر مارسته فيما سبق، ولكن يختلف عنه في أن صاحب المتجر كان من الذين يؤمنون بأن الضرب والشتم لا يمكن أن يزيدا من نشاط العامل.

وجودي في هذه اللحظة وسط هذه الطبيعة الخرساء يعود الى حديث شائق

دار منذ بضع ليال بين صبية حينا، الحديث كان عن إمكان الربح بشكل سريع وسهل.

فعندما يتراجع البحر جزرا، يترك خلفه كثيرا من الثروات، دررا بيضاء تحتضنها بدفء صدفات بحرية، تكلس على أطرافها ملح خليجي. الأصداف الغنية المداعبة لأحلام الفقراء من أمثالي، تختبئ بين الصخور، والبحث عنها متعب؛ فالطبيعة دائما تتفنن في إخفاء كل ما هو در ونفيس.

البحر كلسان ثور جف من العطش، الأرض التي تعرت من ثوب أزرق استقبلت به الشمس هذا الصباح، تبدو لي الآن سوداء...، سواد طينها يذكرني بمنظر رأيته هذا الصباح، يذكرني بوالدتي المرهقة، وهي تحاول أن ترتق عباءتها القديمة، وتبوء محاولاتها بالفشل، فنسيج العباءة القديمة يرفض بشدة الخيوط السوداء الدخيلة التي تطمس حلاوة الذكرى المسجلة على نسيج، أسود، هرم.

عملية البحث عن الدر شاقة، لكنها تتفق مع كل عمليات البحث الأخرى، من حيث المتعة والتشويق.

أحلام الثراء السريع تسكرني، يداي المجروحتان ومديتي الصغيرة لا تكل عن العمل، أفتح الأصداف بعد عناء، لتلتهم عيناي ما في جوف الصدفة من لحم طري، وخيط رفيع من الدم القاني، مصدره أناملي المشققة... وسط اللحم لا توجد سوى العروق، وابتسامة سخرية مرة، سجلها البحر في جوف أصدافه.

لا أذكر عدد الأصداف التي فتحتها حتى الآن، ولكني أعرف أني يائس، متعب، غير مقتنع بلعبة الثراء السريع... لأعد من حيث أتيت. اللعنة عليهم جميعا دفعتني أحاديثهم إلى الغرق في حلم لا تحمل شواطئه بارقة أمل واحدة.

وداعا أيها البحر، وداعا أيتها الدرر الغنية، نامي بسلام، لن أمسك بسوء... انتظري تلك اليد العريضة السمراء، يد الغواص الجريئة، انتظريها... فهي فقط تستحق أن تنتزعك من مملكتك الصدفية... أما صبي الدكان فسيبتاعك ذات يوم، ليزين بك جيد عروس لم يرها حتى الآن، ولا يعرف ما لون أظافر أصابع قدمها المخضبة بالحناء... آه المرأة... مخلوق سحري يقض مضجعي، خاصة عندما أشتم

رائحة اللحم الطري الناعم، المنبعث من جسد المتبضعات من متجر سيدي... أتمنى أن أدفن رأسي وسط اللحم، وأسبح بلذة، ولا أصل إلى شاطئ، وأظل أسير هذا البحر، بل أغرق فيه، أدفن في قاعه الدافئ... أخ إنني أنتفض بشدة، فأنا لن أدفن سوى في وسط الرمل والحصى... لن أعرف طعم الأنثى... فهي نعجة يجب أن أبتاعها، وإن وجدت ما ابتاع به رغيف خبز لعشائي، فلن أجد ما أبتاع به امرأة... احتاجها بشدة... وترفضها ظروفي المادية بشدة أكثر... فوجودها يعني توالد مزيد من الأفواه الجائعة... يا امرأة، كنت وستظلين حلما رائعا في مخيلتي المتعبة التي أملت عليَّ ذات يوم أمنية غريبة. وهي أن أُخلق من جديد، ولكني أُخلق تيسا، أتمكن من أن أمارس الحب كما أشتهي، ومن دون قيود وعوارض من المعدن الصدئ الذي أطلق الناس عليه اسم دراهم، وأصبح محور صراعهم الأبدي.

في هذا المسجد الطيني الذي لا يبعد خطوات عني، يجتمع كل مساء بحارة، صيادون،... دعواتهم تشبه دعواتي... المطلب الأبدي المكرر... مزيدا من الدراهم وأنثى حلوة تكسر طوق الملل في حياتهم، وتمنحهم أطفالا من الذكور ليكونوا سواعد قوية تستحلب الرزق من ثدي البحر المعطاء... هذا المسجد بسيط في بنائه، بساطة البحارة الذين أسهموا في خلقه، سجلوا على جداره الطيني أسماء رفاقهم الذين ابتلعهم البحر، وأسماء اثنين من البحارة زلت أقدامهما وهما يهمون بالانتهاء من بناء منارة المسجد... وكما سقطوا ببساطة دفنوا بمراسيم أكثر بساطة... يقال بأن أرواحهم المعذبة تهيم في هذه الأنحاء... ترتل أغنية حزينة، تعني شبابهم المفقود، تطالب بالثأر من مجتمع لم يضمن لهم حق التمتع بهذا الشباب... على الرغم من أن تفكيري منطقي، فلست أدرى لماذا تلتصق بذهني خزعبلات والدتي وعجائز حينا، عن الجن والأرواح الشريرة... فعندما ألجأ إلى فراشي مساء، أخفى رأسي المتعب بين الأغطية، حتى لا أرى طيف أحدهم... ولكن يخيل إليَّ أن هناك روحا خفية تهيم من حولي، تريد أن تفتك بي... لو كانت روح أحد البحارة، فهل يعقل أن تفتك بي، وأنا إنسان قصتي تشبه قصته، فالشقاء عامل

مشترك فيها... والنهاية لا تختلف كثيرا، فكلنا نموت ونحن نعمل، نبني، نصنع خير هذا المجتمع الذي يتخم بعض أفراده من لحم سواعدنا... يقولون: أنت الفقير، عامل، كادح، والآخر متخم بالغنى، هذه شريعة سنها المجتمع البشري... أحتج بشدة، فهذه الشريعة لم يسنها سوى جشع الإنسان وذلك الشيء الكريه فيهم،... عندما تنمو دراهمهم ينمو معها ما ورثوه من خصائص مجتمع العبيد، السيادة وحب امتلاك الآخرين... قالوا إن العبودية انتهت، خزعبلات تشبه تخريفات العجائز... فما زال المجتمع مقسما إلى طبقتين: طبقة تتخم نتيجة عمل طبقة أخرى، فمجتمع العبودية لم ينته، بل هو ينمو ويتوالد خالقا عبيدا ومستعبدين، في إطارات أكثر حداثة. أكثر من مرة تساءلت: ما الفرق بيني وبين صاحب المتجر؟! لو كان المتجر ملكا لي لتساوينا، بل ربما تفوقت عليه... فأنا ذكي، سريع البديهة... من يدري لو أتيحت لى فرصة التعليم ربما كنت أحد نوابغ هذا العصر... لست أدري من القائل بأن الفقراء أغبياء، فلو كان عندهم شيء من الذكاء، لما ظلوا فقراء... ليمنحوني مجتمعا أكثر عدلا، وظروفا أقل مأساوية لأثبت لصاحب هذه المقولة، من الغبي فينا.

حائط المسجد الطيني هو رفيقي الوحيد هذا المساء... يستقبل أفكاري ليمزجها بدم صانعيه... ولكن هناك طيفا غريبا يتراءى لي كلما اقتربت من حائط المسجد... والدتي المتعبة الحزينة، رفاقي الصبية، عجائز حينا، كلهم تحدثوا مرارا عن هذا الطيف الغريب إلا والدي الذي قال لي: «لا تخفهم فهم لا يتواجدون سوى في خيالنا المريض»... أيعقل أن يكون خيالهم مريضا، إن ما أراه أمامي لا يثبت ذلك... الطيف... الجني... لست أدري ما هو... ولكنه يتقدم نحوي شاهرا مديته في وجهي، وأنا أعزل، بارد، خائف، ملتصق بالحائط المقابل للمسجد... ألا تنشق أيها الحائط فتبتلعني وتبتلع خوفي معك... لأصرح، لأستغيث على الرغم من أن كل ما حولي صامت أخرس، رهيب... وصوتي أين هو؟! إنه غاص في أعماقي، يتلمس الفرار،... ينبعث ضعيفا، واهنا، كأصوات صرصار ليلي... يداي تحجبان وجهي عن رؤية خلقته القبيحة... من خلال أناملي المنفرجة عن بعضها ببطء، أنظر من جديد،

عسى أن يكون قد رحل... ولكنه مازال واقفا، شاهرا مديته، متحديا تحديا غير عادل... فأنا ضئيل وهو عملاق... أنا خائف وهو مخيف... أشعر بأني وحيد، ليت أمي كانت معي... آه يا ويلي عليها... ستشق عباءتها غدا عندما تسمع بمصرعي... أرحل وتظل الأفواه الجائعة مفتوحة في وجه الشمس حتى تجف، تاركة ختم الجوع الكريه على قبور أصحابها... القبور، الموت، العالم الآخر الغارق في سريته، وهذه الروح المنتصبة أمامي، الحاملة سرا من أسرار ذلك العالم... كل ما حولي مخيف بارد، لزج، يضغط على جمجمتي الهشة... رأسي مصدع، متعب يختبئ بين ثنايا ثيابي... يلتصق بالجدار، يحتك بالطين اللزج المخضب بعرقي البارد... هو أيضا يلتصق بالجدار، محتفظا بحركته السابقة... يريد ضحية، جسدا بشريا يمزقه. وأنا أين شجاعتي؟ أتصرف كأنثى تختفي من ظلها... مخجل أن أخاف... لا، الحقيقة هي أني خائف حتى الموت، لكن يجب أن يولد وسط هذا الصمت صراع... إما أن يمزق أحدنا أحشاء الآخر، وإما أن نرحل بسلام.

مديتي ترتفع عاليا، اندفع نحوه مغمض العينين، مديتي تنغرس في بطن الحائط... خصمي لا يبدي أي نوع من المقاومة... أنا حائر لا أعي ما يدور حولي... لكن ما هذا؟! ما هذا؟! ما الذي فعلوه بي؟! يا حائط احتضنني بقوة ضاحكا، باكيا، ناظرا بسخرية إلى ما علق بأطراف أناملي من بقايا البن الخشن المتيبس الملتصق بالحائط، القادر على أن يخلق رسما عشوائيا فسره خيالي المريض بجني يحمل مدية... سامح الله ساقي القهوة الذي غسل حائط المسجد بما تبقى في دلته.

أمي... افتحي ذراعيك لاستقبالي هاربا من بؤرة الرعب هذه، معانقا وجهك الحنون، أحد موانئ سفن شقائي المخضبة أشرعتها بعرقي الأسود.

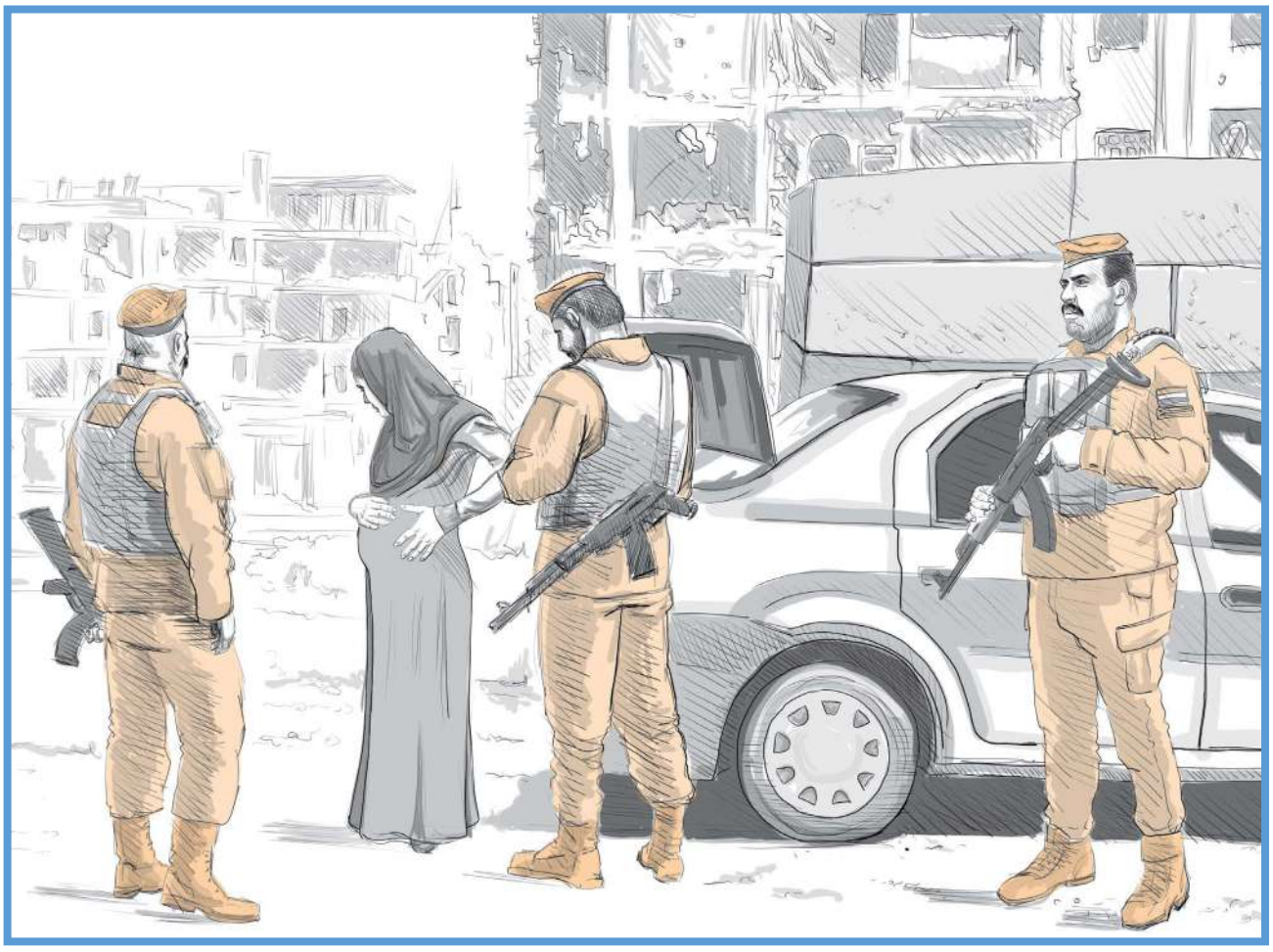

زمن الانحدار

ساعة الزمن تتحلل، تذوب، تسقط الأرقام واحدا تلو الآخر، تتذكر لوحة للفنان الإسباني سلفادور دالي (حضور الذاكرة)، في وسط اللوحة ساعة ضخمة، تذوب لتفقد شكلها، تحيط بها صحراء قاحلة موحشة... ذوبان الساعة تم بفعل الحرارة. حتما إنها حرارة الصحراء المنبثقة من خيال الفنان.

ساعات الحائط المعلقة في الوزارات والمؤسسات الحكومية بعضها سُرق، رغم وجود مسمار يشهد بأنها كانت معلقة ذات يوم، والبعض الآخر توقف عن العمل، وعقربها الكبير يشير إلى الثامنة صباحا، موعد بدء الدوام في الثاني من أغسطس!

عمليات السقوط كانت متتالية، وبشكل مأساوي، أسماء الشوارع سقطت، ثم سقطت أسماء الناس، بعد أن دسوا في جيوبهم هويات مزورة، سقطت أجساد شابة كانت تعج بالحياة، سقطت المدينة المستمرة في انحدارها، حتى أن اسمها قد أزيح ليُستبدل بإعلان صغير «احذر هنا غابة، مملوءة بالذئاب!». وبعد سقوط الزمن، والجسد، والأسماء، سقطت هي في فراشها الدافئ، تأكل، تنام، تستيقظ تطل برأسها الجميل، وشعرها الأشعث، من فتحة باب الصالون، تسأل جمهرة الأهل والأقارب، الذين يلتصقون بجميع أجهزة البث المختلفة.

«هل من جديد؟»، «متى سينسحب الجراد؟»، والإجابة دائمًا: «لا جديد»، «لا انسحاب». تعود إلى فراشها، وفي الطريق تعرج على الثلاجة، تنهش من جوفها ما يؤكل تتحسس ردفيها: «يا إلهي كم سمنت»، تحاول أن ترتدي بنطال الجينز، لكنها محاولة فاشلة، لا تختلف عن حياتها الجديدة الموغلة في الفشل.

***

«ها لن أنام... سأخرج إلى الشارع لأقتل سأمي». قرارها بالخروج قوبل بالدهشة، ولكنهم لم يعترضوا، فطوال شهر كانت شيئا يطحن الطعام، يصاب بالتخمة، ثم يغط في سبات عميق، لم تتفاعل مع انحدار المدينة. بل إنها أسهمت في عملية السقوط، حتى أنها ألقت بساعة المنبه من نافذة غرفتها، وعللت هذا التصرف بأن لا دوام حكوميا بعد اليوم. ومن يحتاج إلى ساعة منبه بعد أن دقوا عنق «كرت الدوام»؟

قرارها بالتجول بسيارتها في شوارع المدينة أثار فزع الجميع، لكن بوادر الاحتجاج

أخفيت مؤقتا، واستعيض عنها بعبارة «كوني حذرة. فلقد سمنت و«تربربت» ربما فكر أحدهم بأكلك».

***

جولتها أثارت الفزع في داخلها، وبعد أن رأت سحناتهم المتجهمة، وآلياتهم العسكرية، ونقاط التفتيش، تجشأت ما أكلته طوال شهر كامل، وكرهت ذلك المستطيل الأبيض المسمى الثلاجة.

ولشعورها بالغثيان من نفسها، تذكرت صديقة العمر «نوال». اتجهت إلى منزلها، لتفك حالة التشابك النفسي التي تعيشها. استقبلتها أعز الصديقات بحرارة، عانقتها وهي تقول مازحة: «أهلا... أهلا بفرس النهر، ما الذي فعلته، هل أكلت تموين كل سكان مدينة الكويت؟».

لم تغضب من تعليقها الساخر، لكنها لاحظت أن ساعة الحائط في منزل نوال مازالت تعمل، وهذا ما أثار استغرابها.

فهي قد ألقت بساعة المنبه من النافذة بعد أن تذكرت أن ساعة «دالي» مازالت مستمرة في الذوبان.

صديقتها نوال متألقة، رشيقة كالغزالة، وابتسامة حلوة تشق وجهها الصبوح، يبدو أنها لا تعاني انحدار الزمن أو سقوط المدن، خُيِّل إليها أنها تخفي سرا، ولهذا دخلت معها في عملية تحقيق دقيقة، فاكتشفت ذلك السر الذي لا تحب أي امرأة في العالم أن تحتفظ به لمدة طويلة «إنه الحب».

صاحت في صديقة العمر غاضبة «أتحبين في مثل هذا الوقت؟! الدنيا مقلوبة رأسا على عقب، لا ندري إذا كنا سنموت مختنقين بالغازات السامة، أو برصاصهم الطائش. أو بنزهة وحشية يقومون بها فوق أجسادنا، وأنت تحبين؟! نوال اسمعيني جيدا أنا أحتقر الحب في زمن اللعنات».

ارتفعت ضحكات نوال حتى انقلبت على ظهرها، فهي تؤمن بأن التهريج أكثر مهنة تناسب صديقتها.

«عودي إلى رشدك يا نوال، مع أنك مطالبة من قيادة الصداقة العليا بتقديم

تقرير عسكري مفصل عن حالتك العشقية. وتفاصيل دقيقة للمكالمات الهاتفية بعد منتصف الليل، ثم إذا كان المعشوق دون مستوى الوسامة المطلوبة، فأنا لا أرغب في سماع أي حكايات ملفقة».

تحدثت نوال بصوت ناعم حالم: «إنه يا عزيزتي أسمر، طويل، عريض المنكبين، له شارب أسود كالحرير، قوي الشخصية، عندما أراه أكاد أجن فرحا، تعرفت عليه عن طريق بعض الأصدقاء الذين رشحوني للقيام بمهمة سرية؛ ففي أول اجتماع لخليتنا كان هو القائد، لقد خُلِق ليكون قائدا، وغير ذلك لا يناسبه».

زرع عيني في وجهه، شعر بالحرج وهرب من عيني وهو يحدث الأخريات.

كنا حلقة من الفتيات، كلنا آذان صاغية، وكان هو يسهب في الشرح، فأي خطأ يعني نهايتنا، والعمل المطلوب منا هو المساهمة في تهريب منشورات سرية معادية للعدو.

فهم يصدرون نسخا معدودة من منشور «الصمود الشعبي»، وعلينا توصيلها إلى مختلف مناطق الكويت، حيث يتسلمها منا شباب متطوعون يعيدون تصويرها بكميات كبيرة ويوزعونها على سكان المنطقة.

إن خطورة هذه المهمة تكمن في نقاط التفتيش المنتشرة في معظم الشوارع، والعثور على أي منشور سري يعني حفلة تعذيب ربما تقود إلى الإعدام، وقبل أن نغادر الحلقة حذرنا قائلا: «هذه مهمة فيها كثير من المخاطرة، ومن لا تجد في نفسها الشجاعة، الرجاء أن تعلن انسحابها منذ الآن».

يا صديقتي الحبيبة، إنه أكثر من رائع، يتحدث كقيادي كبير، يخطط ويتكتك، ويحلم ويخاف علينا، وعليّ أنا بالذات. فكلما عدت من مهمة احتضنني بعينيه، وربت على كتفي وهو يردد: «والله إنك لبطلة».

***

حالة نوال أسرتها، لم تنم تلك الليلة، حتى عشاؤها لم تمسه!! تسمرت أمام جهاز التلفاز تراقب ما يحدث، والجميع مصابون بالذهول. علق أحدهم ساخرا: «يبدو لي أن فرس النهر قد شفيت».

تسقط الساعة في حضن الزمن، وتسقط فتاة في حضن السرير، يسقط الجميع عند باب الثلاجة، والمدينة لا تتوقف عن انحدارها.

تخرج هي من رحم السقوط، ومن قوانين الانحدار؛ لتجد نفسها وسط حلقة من الفتيات، يتلقين أوامر من رجل وسيم، أسمر، عريض المنكبين، ذي شارب حريري أسود.

ثم تعزز رغبتها في عدم استمرارية السقوط، عندما تتوقف سيارتها أمام نقطة تفتيش عسكرية، حيث كتب على لوح خشبي نُصب في قارعة الطريق: «توقف نقطة سيطرة».

الجندي يؤدي مهمته بملل مميت، يعيد لها أوراق سيارتها، وإثبات الشخصية. يمازحها وهو يبحلق في بطنها المنفوخة:

- الدنيا مقلوبة، وأنتن النساء مازلتن تمارسن الحب والحمل والولادة؟!

***

مريم العذراء حبلت بسيدنا عيسى، وهي حبلت بمنشورات سرية!

فتحت ثوبها الفضفاض وسادة منتفخة، وتحت الوسادة حزام عريض من القماش، دست بين ثناياه مجموعة من المنشورات السرية.

تذكرت تعليمات نوال التي تفوقها خبرة في هذا المجال «لا تنسي أن تمنحيهم ابتسامة مجانية، وعليك إجادة تمثيل دور المرأة الحامل، وإذا طلب منك مغادرة السيارة ضعي يدك على الوسادة لكي لا تسقط، وفي طريق العودة احتفظي بحملك الوهمي، لكي لا يشكوا في أمرك».

جندي آخر وجدها مادة جيدة للترفيه: «أنتن النساء تحبلن مثل القطط».

نعم هي مريم عذراء كويتية، حبلت بمنشورات سرية.

وتكررت تلك المكالمة الهاتفية «ألو... لن أعود هذا المساء للبيت... سأنام عند صديقتي نوال».

ساعة نوال منتظمة في عملها، ساعة «دالي» تلاشت، بعد أن كفت المدينة عن الانحدار.

ابتسامات

موعد الاجتماع في السادسة. وصلت إلى المحل قبل جمعة. سأراجع قائمة الأسماء الجديدة المقترحة ريثما يصل.

جمعة صديقي منذ أيام الدراسة، أحبُّ فيه طيبة قلبه، وابتسامته الهادئة التي لا تفارق محياه. قبل ثلاثة أشهر، وبينما كنا نلعب الورق مع الربع في جلسة الديوانية المسائية اليومية، ووسط صراخهم، همس بي:

- «عندي مشروع جديد».

- «مبروك مقدما».

قلت ممازحا، فلمحتُ على وجهه نظرة توزعت بين الرجاء والجد. انسحبت من لعب الورق، وانتحيت به جانبا، فقال:

- «أنت موظف حكومي وربما تفهم في الأمر أكثر مني».

شعرتُ بجديته، بثّني:

- «عزمت على فتح محل، وأودّ أن تكون شريكي».

- «أنا موافق دون أي قيد أو شرط».

سبق قلبي لساني في الموافقة:

- «توكلنا على الله».

ردد هو وقد نثر الرضا على وجهه ابتسامة طيبة، وقال:

- «غدا أبدأ المعاملة الرسمية في استخراج الرخص».

***

في تلك الليلة، لحظة بدأ جمعة بشرح فكرته، تحمست لها أكثر منه:

- «سنفتتح محلا لشراء وبيع ابتسامات المسؤولين والمشاهير».

تكلم بهدوئه المعهود، ورحت أصغي:

- «لا أحد يبتسم لوجه الله. الجميع يركض وراء ابتسامة المسؤول الغالية، كلٌ يريدها لسبب يخصه».

أشرت إليه أستوقفه لثوان، فأنا بحكم عملي شهدتُ مواقف كثيرة، وعايشت أنواع الابتسامات، وخبرتُ جيدا كيف يتحمل البعض التعب والانتظار والضيق

لحضور مناسبة أو ندوة أو معرض، لا لشيء إلا ليرى المسؤول وجوههم، وقد يتكرم برمي جزء من ابتسامة عليهم.

أفصح جمعة:

- «ابتسامة المسؤول غالية، ونحن سنوصلها إلى الزبائن الراغبين فيها ونأخذ عمولتنا».

طافت ابتسامة أعرفها على وجهه وهو يقول:

- «كثيرون يكرهون المسؤولين، وربما تمنوا زوالهم، لكنهم يحسبون ألف حساب للفوز بابتسامة منهم».

- «اتفقنا».

بحثنا في الأيام التالية بهمةٍ عن محل مناسب. ولقد اشترطت عليه، أن يكون في مجمع تجاري راقٍ، وأن تكون الديكورات فخمة، و«الكاتالوج» مدروسا، وأخيرا ترتيب الدعاية ليكون حفل الافتتاح حدثا اجتماعيا مدويا.

بعد أن عثرنا على المحل ودفعنا الخلو المطلوب، اتفقنا مع مكتب هندسي لعمل الديكورات المبتكرة. وبغية استغلال الوقت، وبالتنسيق مع شركة أمريكية عالمية عبر موقعها الإلكتروني، بدأنا بتجهيز الكاتالوج بأكثر من لغة، ورحنا نضع الشروح والمواصفات والتصنيفات والأسعار والصور الخاصة ببضاعتنا، وبما يتناسب مع مكانة ونفوذ صاحب الابتسامة، وحاجة وطلب كل زبون.

***

لا أظن جمعة يتأخر. البارحة أكد لي على الموعد، وأضاف:

- «سأحضر أسماء جديدة».

مساء الافتتاح، حرصت أن أكون موجودا قبل الموعد بثلاث ساعات، وكان جمعة قد صبغ شعر رأسه وشاربيه، وارتدى «البشت» للظهور بالمظهر الرسمي، بينما لبستْ فتيات المحل الزي الرسمي الخاص بهن.

يومها كنتُ مشغولا في التأكد من كل صغيرة وكبيرة: وصول بوكيهات الورد، توزيع الإضاءة بالشكل الأمثل، مكان المباخر، ترتيب البوفيه مع مسؤول الفندق

المختص، وأخيرا خروجي أنا وجمعة وإحدى الفتيات الجميلات للانتظار عند بوابة المجمع الخارجية، لنكون في استقبال موكب سعادة المسؤول الذي تفضل بتشريف دعوة الافتتاح، وقبول عرض المحل لتسويق ابتسامته الآسرة.

***

أفكّر بتطوير خطة عمل المحل، واستضافة أسماء مشهورة لفنانين عرب وعالميين.

خلال حفل الافتتاح، وبالإضافة لكاميرات المحل التي تعمل أوتوماتيكيا في مختلف درجات الإضاءة، جهّزت فتيات المحل بكاميرات مفرطة الحساسية، ونشرتهن في كل زاوية، وذلك لمراقبة واصطياد كل من يكشف عن أسنانه، طمعا في اقتناص ابتسامة من سعادة المسؤول، بغية تحميله تكلفتها، حسب التسعيرة، فلا شيء لوجه الله.

بدأ الحفل بوصول نساء ورجال الصحافة وصغار الموظفين ثم بعض المسؤولين الحكوميين فرجالات الدولة والوكلاء والسفراء، ومدير مكتب سعادة المسؤول.

أذكر أن الجو كان مليئا بالابتسامات المجانية على أنواعها، مع تداخل أنغام الموسيقى ببعض الهمس، واختلاط روائح المدعوات بعبير الورد ودخان البخور.

غصّت القاعة بالحضور المخملي والرسمي، وما إن وصل موكب سعادة المسؤول يحيط به طاقم مكتبه، وتسبقه ابتسامته الآسرة المتفق عليها، حتى دبت في المكان روح خفية. أسرع البعض متدافعا للسلام عليه، وقد كشف عن أسنان لامعة. ولبس البعض وجوها جديدة باسمة، وأطلَّ بعض آخر برقابهم ملوّحين بابتساماتهم وتحياتهم:

- «مسّاك الله بالخير يا طويل العمر».

انتقل آخرون إلى زوايا جديدة، في مرمى ابتسامة سعادة المسؤول.

بدا الجميع منشغلا في اصطياد ابتسامة كان الإعلان عنها كفيلا بجذب عشرات المشترين. ولحظتها بدأت كاميرات المحل بالتقاط صور وجوه الباحثين عن ابتسامة سعادة المسؤول، ولم تتوقف.

أسمع خطوات جمعة، سأنهض لاستقباله.

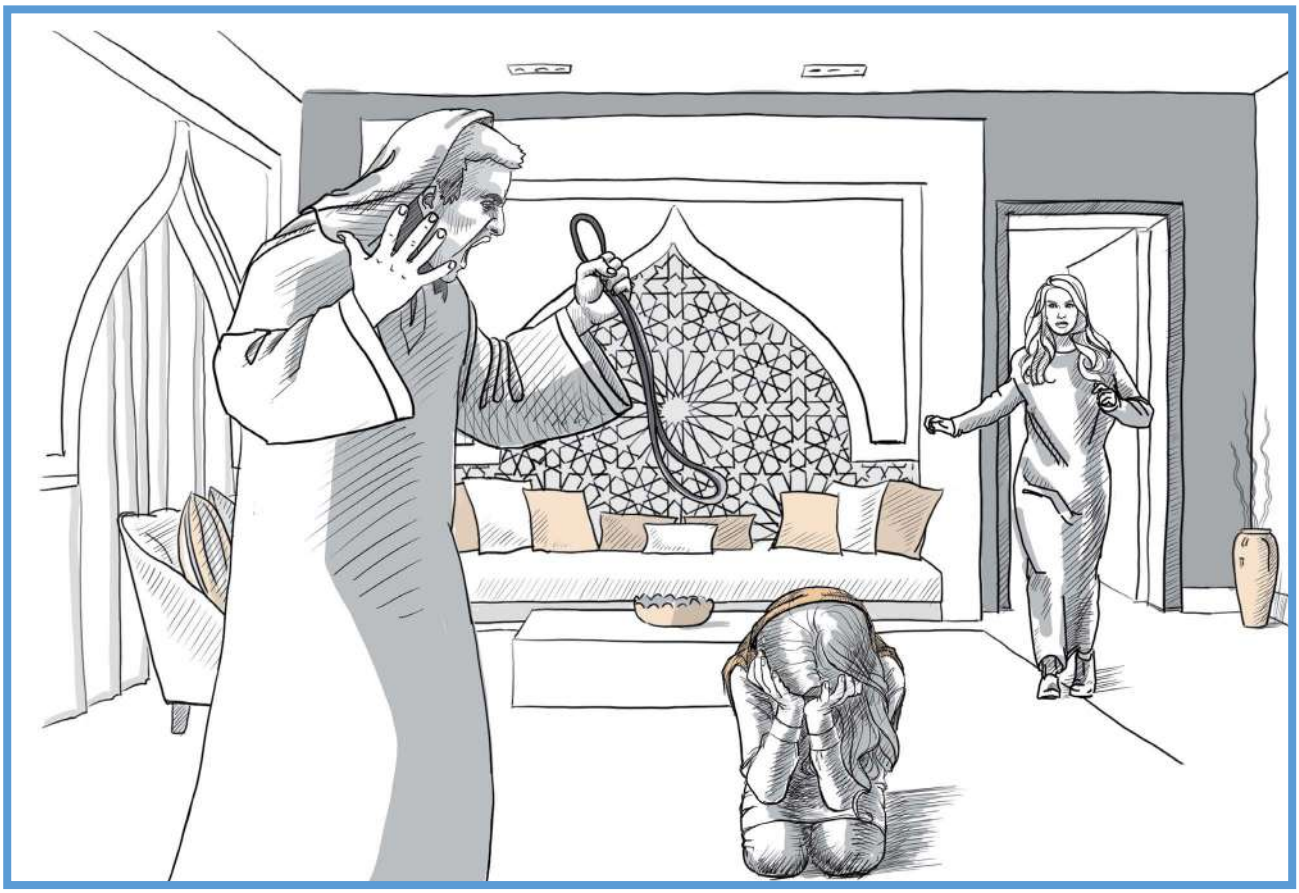

وضحى

كنتُ في طريقي إلى المطبخ، حين سمعتُ الضجة وميّزت صراخه.. فُتِحَ باب البيت، أبصرتُ أخي متعب يدفع أختي الصغرى خزنة. رفس الباب؛ ليغلقه خلفه، وهجم عليها يتعارك معها، أزاح عباءتها عن رأسها وانتزع حجابها. أمسك بها من شعرها، يجرّها كالنعجة إلى غرفتها، وصوت صراخه يعلو:

- «سأقتلك».

- «لم أفعل شيئا». ردّت محاولة إفلات رأسها:

- «الناظرة اتصلت بي».

- «تكذب، لم أواعد أحدا».

شلّني المشهد. لا أدري ما الذي حصل. خزنة في المدرسة وهو في عمله، لماذا رجعا معا، وما المصيبة التي فعلتها أختي؟

طوّح بها يجرّها، وقد سقطت غترته وعَلَقَ عقاله في رقبته. وتعانده هي محاولة تخليص رأسها ورقبتها:

- «اتركني».

- «تعالي». سحبها ونظرته الزائغة وغضبه:

- «سأؤدّبك».

- «الناظرة تكذب، أقسم بالله».

لحقتُ بهما. خاطبتُ متعب:

- «ماذا حصل؟»

- «ابتعدي». زجرني، فرميت نفسي، أتعلق بذراعه كي أفك أختي، لكنه دفعني وأدخلها غرفتها وأغلق الباب. علا صوت صراخه بشتائمه وتوسلات استغاثتها:

- «متعب الله يخليك».

بقيتُ خلف الباب أفرفر، وأنا أسمع صرخات أختي ومسبّات أخي الجارحة:

- «تواعدين شابا!».

لطمتُ وجهي:

- «يا ويلي».

ظل الباب موصدا يعاند محاولاتي بصراخي:

- «متعب، افتح الباب».

لا أحد في البيت؛ أمي تصاحب أبي في المستشفى، وإخوتي في مدارسهم.

طرقتُ ورفستُ الباب بكل ما أستطيع. انتبهتُ رجفة تمسك بي... صراخ ومسبّات متعب واستغاثة خزنة وتوسلاتي:

- «أبوس يدك افتح الباب».

فكّرتُ في أن أستعين بأحد الجيران، أو أتصل بالشرطة.. ركضتُ برأس مكشوف إلى الشارع. نسيتُ حجابي وعباءتي. لا أدري من أين نبتت وضحى بنت جيراننا أمامي.

- «متعب سيقتل خزنة». صرختُ أستنجد بها.

نظرتْ في وجهي وكأنها تستوعب ما أقول. ركضتْ وأنا خلفها. دخلنا البيت فأشرتُ إليها:

- «غرفة خزنة».

سقط غطاء رأسها.. وضحى حلم متعب. لا يكفّ عن أن يطري جمالها أمام الجميع:

- «فرس».

ضربات وضحى العالية على الباب وصراخها:

- «افتح يا متعب».

انتبهت إلى أنني أقف برجفتي ودموعي. ابتعدت وضحى عن الباب واندفعت ترفسه، وصراخها:

- «افتح يا حيوان».

استغربت كلمتها... لثوانٍ خمدت ضجة الغرفة وأطلّ وجه متعب من شق الباب. أخافتني هيئته بنظرة عينيه المسعورة وعرق وجهه وبعثرة شعره وبقع الدم على دشداشته. وقف يسدّ فتحة الباب. فدفعته وضحى بكلتا يديها، صارخة به:

- «ابتعد».

دخلتْ فمرقتُ أنا خلفها.

- «حبيبتي». تعثرتْ نبرة صوتي ببكائي.

خزنة بوجهها المدمى تنتحب مكوّمة على الأرض وكدمات الضرب على رقبتها وذراعيها وساقيها المكشوفتين. تلاقت نظراتنا فقرأتُ انكسارها وتألمها.

- «ماذا حصل؟» انحنت وضحى تسألها.

ظلت خزنة بنوبة نشيجها، بينما ميّزت رجفة تمسك بأطرافها ونبرة حسّها:

- «ما فعلت».

ركضتُ إلى الحمام، وعدتُ بخرقة مبللة بالماء البارد. خطفتها وضحى مني، وبأصابع حانية تتحاشى إيلام خزنة مسحت جروح وجهها. ولا أدري لماذا انفجرتُ أنا بعويل بكائي. لكن وضحى صرخت بي:

- «ساعديني».

وقفتْ تحاول رفع خزنة. لكن أختي ظلت ملتصقة بالأرض. لمحت دائرة بول تحتها. مددت يديّ أعاون وضحى.

غارقٌ بصمته وقف متعب بجانب الباب.. متكئة عليَّ ووضحى جرّت خزنة قدميها إلى الحمام. ذراعها مدبوغة بآثار ضربات عقال متعب، وكدمات وجهها ورقبتها، عينها اليسرى منتفخة بورم أزرق. بالكاد غسلت وجهها بتأوهاتها. عادت تتكئ عليَّ ووضحى؛ لترمي نفسها وجروحها وارتجاف جسدها على السرير. رحتُ أنظر إليها. رفعتْ وجهها تخاطب وضحى بصوتٍ مضعضع:

- «والله لم أفعل شيئا، الناظرة كاذبة».

ظل متعب صنما واقفا خلفنا بخرسه يتابع ما يجري.

اعتدلت وضحى برأسها المكشوف وليل شعرها، خَطَتْ باتجاهه، وقفت تواجهه، هي أطول منه بقليل. لثوانٍ تلاقت نظراتهما، لمحت عرقا أخضر يلمع وسط جبهتها، وصوتها:

- «لستَ رجُلا».

أظلم وجه متعب، وتسربني شعورٌ غريبٌ لا أعرفه... خطت وضحى، تجاوزته مُظهِرَة تقززها منه بوقفته وتلوث يديه... ذليلٌ هو التصق بجدار الغرفة. تحاشيتُ أنظرُ إليه.

تمنيت لو أحضن وضحى. انتبهتُ لأنين خزنة وقد هدأ شيءٌ من ارتجاف جسدها.

سارت وضحى خارجه بجنون شعرها الأسود المكشوف وعرق جبهتها الأخضر وشيء من بياض رقبتها. تحرك يسير خلفها.. التفتت إليه. فالتصق مكانه، وبمواء نبرتها بادرته:

- «كلب!».

أم

أنهيتِ أنتِ ترتيب الأغراض داخل حقيبة سوسو: زجاجة رضعة الحليب، والحفاضات، والماء الحار، وعلب بودرة حليب الصغيرة، وملابسها الداخلية، ولحاف القطن الناعم... رفعتِ رأسكِ، وكما لو أنها كانت تنتظركِ بادرتكِ بنبرتها الآمرة:

- «بسرعة، ضعي الحقيبة تحت».

لا تمهلين الوقوف أمام المرآة والتزوّق... حملتِ الحقيبةَ بصمتٍ، وقبل أن تخطي خارجة عادت هي تخاطبك:

- «عودي بسرعة لتنظفي سوسو، وتلبسينها حفّاضة جديدة».

- «طيب».

رددتِ عليها، ولَمَحَتْ عيناكِ الصغيرةَ بنومتها الوادعة.

الأسبوع القادم، أكمل سنتي الثانية هنا. حدّثتِ نفسكِ وأنتِ في طريقك إلى الطابق الأرضي: جئتُ قبل ميلاد الصغيرة بشهرين... قَدِمْتُ بحقيبة شبه خالية... كانت المرة الأولى التي أسافر فيها. تخرّجتُ من الجامعة، وبقيت سنتين أبحث عن عمل لأعيل أمي وأختي الأصغر. صادقتُ أندريه طوال فترة الدراسة الجامعية، ويوم عثرت عليه مع فتاة صغيرة في سرير غرفتنا، حقدتُ عليه وكرهتُ الحياة... هجرته، وجئت إلى الكويت لأعمل خادمة.

استغربتْ سيدتي يوم قلتُ لها:

- «أحمل شهادة جامعية».

ظلت تنظر إليَّ... أحضرتُ لها صورة شهادتي، عاينتها ولم تُحِرْ كلمة.

الكويت تصبح تنورا في الصيف؛ الشمس ترسل نارا.. تخلوُ الشوارع، فيتربص هواء ملتهب بالعابرين... سأضع حقيبة سوسو قرب الباب، كي نأخذها قبل خروجنا. عليَّ أن أسرع لتغيير حفاضتها قبل أن أركض كي أستحم وألبس ثيابي.

لا أدري؛ لماذا لا تنظّف هي ابنتها وتغيّر حفّاضتها؟!

***

أخذتُ مكاني في المقعد الخلفي والصغيرة في حضني.

جلستْ هي في المقدمة إلى جانب زوجها... صرتُ أعرف أنهما انسجما مع بعضهما

قبل الخروج. أميّز نضارة وجهها، ونظرة عينيها، ونبرة صوتها الرائقة، وابتسامة الرضا الرطبة التي تعلو شفتيها. تعاودني صور ذكرياتي وأندريه، فأسرع أطردها من رأسي.

تصرّ هي على سماع أغانيها المفضّلة في السيارة. لكن حين تكون راضية، تسمح له بالاستماع إلى نشرات الأخبار، أو اختيار أي محطة إذاعية.

بين الفينة والأخرى ينظر هو في المرآة ليتأكد من نوم الصغيرة في حضني... مع بداية شهرها الثالث أصبحتُ أنا المسؤولة عنها.

- «تعالي ساعديني».

كانت المرة الأولى التي أحمم طفلا؛ جسمٌ وردي ذائب وبكاء حبيب، «بانيو» أبيض صغير... أمسكتْ هي بالصغيرة، وبأصابع خائفة مررت سائل صابون الأطفال على بشرتها الناعمة، وكنتُ مترددة وأنا أمسح شعر رأسها النابت «بشامبو» الأطفال، خوف أن يحرق عينيها الصغيرتين.

واضح أنه أرضاها اليوم... لم تغيّر محطة الأخبار منذ ركبنا السيارة.

سوسو عوضتني غربتي. تخرج سيدتي وزوجها لعملهما، وأبقى وحدي في الشقة. سجلتُ مواعيد رضاعتها، وكمية الحليب... وضعت لها مرهم التسلخات، وغيّرت نوع الحفّاضات أكثر من مرة لأنها تركت أثرا ورديا على أفخاذها القطنية. وكنتُ أسجل مواعيد التطعيم الدورية في المستوصف، وأحملها على صدري أتبع سيدتي.

أدمنت شمّ عطر رقبتها وصدرها. ما إن تخرج سيدتي إلى عملها وتتركني معها، ولحظة أغيّر الحفّاضة أغيبُ وأنا أشمّ عطر جسدها... كم تصوّرت طفلي من أندريه! أخلع عني ثيابي وأضعها على صدري، يلامس لحمها الطري جسدي فتهدأ روحي... صرتُ أشعر أنها ابنتي، يجافيني النوم حين تكون مريضة أو ترتفع حرارتها.

***

موقف السوق مزدحمٌ اليوم.. أخيرا عثر سيدي على موقف. ترجلت هي لتأخذ الصغيرة مني، وتخاطبني:

- «العربة».

أُخـرِجُ عربـة الصغـيرة مـن صنـدوق السـيارة، أجهّزهـا، أضـع الحقيبـة في الخانـة السـفلية، قبـل أن تمـدد هـي الصغـيرة في فراشـها.

تسـير أمامـي بكعبهـا العـالي، ممسـكة بكفـه، بينـما أتبعهـما دافعـة العربـة. لا أتصـور نفـسي أتخـلى عـن طفلتـي لامـرأة أخـرى.

السـوق مزدحـم اليـوم، لا تمـلّ هـي شراء الملابـس الغاليـة، وتبحـث عـن أرخـص المحـال لـشراء ملابـسي!

صرتُ أعرفهـا؛ مـا دامـت راضيـة عنـه، فسـتدع لـه اختيـار المطعـم... يتوقفـان عنـد المصعـد، فتلتفـت نحـوي:

- «المطعم بالدور الأول».

سبق أن كُنا هنا... مسؤول المطعم يستقبلهما فتبادره قائلة:

- «طاولة لشخصين».

يبتسم موافقا فتُنبّه:

- «تطلُ على ممشى السوق».

يجلسان هما، وتشير بيدها لي:

- «قفي هناك في الفسحة».

أدفـع العربـة، أبتعـد عنهـما. أشـمُّ الرائحـة. يعـبر أحـد النُـدّل أمامـي حامـلا صينيـة طعـام.. نسـيت أكل أي شيء قبـل خروجنـا.

سوسو استيقظت. سأجهّز رضعتها.

المطعـم يضـجّ بحركـة الزبائـن والموسـيقى والرائحـة والطعـام... هـي وزوجها يجلسـان حـول طاولتهـما. الصغـيرة تبـدأ البـكاء. موعـد رضعتهـا... أحـاول جـسَّ حـرارة المـاء قبـل وضـع بـودرة الحليـب... أهـزّ القنينـة، والبـكاء معـي... أقطّـر نقطـا عـلى راحـة يـدي كي أتأكـد مـن دفء الحليـب. ضجـة المـكان تبتلـع بـكاء... هـي وزوجهـا هنـاك. النـادل يضـع أطبـاق الأكل أمامهـما... أضـع الرضعـة في فـم الصغـيرة فتهـدأ هـي، وتسـتيقظ أفعـى الجـوع بي.

قرب المدخل

جالسٌ في مكتبي، الاجتماع ينتظرني. رجل الشاي والقهوة العجوز يطرق الباب، وكعادته يدخل بخطوته الهادئة دون استئذان:

- «صباح الخير».

يقول جملته دون أن يتوقع ردا، يحمل صينيته الصغيرة، يضع فنجان القهوة وكأس الماء أمامي، أتوقعه ينسحب كما في كل مرة، لكنه يبقى واقفا، أرفع عينيَّ إليه:

- «ابني».

تفاجئني كلمته، تهبط لتحطّ على المكتب أمامي، أنتظره يفصح:

- «ولدي الثاني».

يبلع ريقه ناظرا إليَّ. لا وقت لدي، الاجتماع ينتظرني، أستعجله لقول ما عنده:

- «تفضل».

- «ابني يدرس في الجامعة.».

ماذا يُريد؟ أسأل نفسي.

- «أكمل السنة الثانية بتفوق... ولد نبيه».

يقف أمامي بجسمه الهزيل، وتجاعيد وجهه المكدود بهمّه، وقميصه الأزرق الداكن، ممسكا بصينيته الصغيرة. لا أذكر أني رأيته مرة بدونها، سنوات وهو يعمل بصمت... أنا مدير إدارة شؤون الموظفين، أكره مخالطة العمال، لحظة أقترب منهم يتجاوزون حدودهم، ويثقلون عليَّ بطلباتهم.

- «هذه صورته». يمدُّ يده المعروقة نحوي بصورة ملوّنه لشاب بنظرة متوقدة وتسريحة شعر مرتبة. ويضيف:

- «يدرس في كلية الهندسة».

- «لدي اجتماع، تكلم بسرعة»، أزجره كي يُنهي ما عنده.

شيءٌ من ارتباك يظهر على وجهه، يخاطبني:

- «هو في السنة الثالثة».

- «وماذا بعد؟».

يعود لسكوته ونظرة انكسار عينيه، كأن فكّه السفلي تهدل قليلا، قبل أن يقول:

- «متفوق، دفعتُ له القسط الأول من مصاريف السنة الثالثة... منذ جئت إلى الكويت، أحرم نفسي من كل شيء؛ لأرسل المال إليهم».

- «أنتَ محتاج كم؟».

أسأله بنفاد صبر، وقد طفح الضيق بنبرة صوتي، يظل واقفا.

- «ليست النقود».

سأعطيه مبلغا وأطرده. أدسُّ يدي في جيبي... لن أعطيه عشرة دنانير، مؤكد أنه يأخذ من جميع الموظفين، يكفيه خمسة لكي يتركني.

أمدُّ يدي له بورقة الخمسة دنانير، لكنه ينسحب قليلا إلى الوراء، تلتقي نظراتنا، يضمّ الصينية لصدره، تتعثر كلماته:

- «مات ولدي، تناثرت أجزاء جسده قرب مدخل الجامعة في التفجير الأخير».

ترتخي ذراعي الممدودة، تنزلق الورقة من بين أصابعي، تتمايل في الهواء قبل أن تستقر عند حذائه، لكنه يستدير بهدوء؛ ليخرج دون أن ينظر إليَّ.

عثمان... وتقاسيم الزمان

1

مانشيت عريض بلون أحمر ظهر على الصفحة الأولى بصحيفة «الشروق» حتما شدّ انتباه القراء في هذا الصباح الربيعي الجميل.

التقط الصحيفة وراح يعيد قراءة الخبر المرة تلو الأخرى، وضع فنجان القهوة جانبا وابتدأ يتمعن في السطور المتلاصقة... مرة ثانية، ثالثة، رابعة وخامسة.

وضع نظارته جانبا، استرخى قليلا، ردّد: «خبر غريب... قد لا يصدق»، أشعل سيجارته ونفث دخانها نحو الجهة اليمنى، أغمض عينه اليسرى، حاول أن يعيد قراءة الخبر هذه المرة بصوتٍ مرتفع «تهبط في صباح الغد مركبة فضائية قادمة من كوكب أبولون المكتشف حديثا، هذه المركبة تتسع لألف راكب... لا يوجد درجة أولى ولا درجة ثانية... الجميع سواسية، تقبل إدارة المركبة الراغبين بالهجرة لأسباب إنسانية، أو سياسية، ومن يهاجر لا يعود للأرض مرة أخرى»... وفي جانب من الصفحة هناك صورة توضيحية لموقع هبوط المركبة بين خط محيط غرب وخليج شرق.

تنفس عثمان الصعداء، ورشف فنجان القهوة، وطوى الصحيفة ووضعها جانبا، اتكأ على الأريكة... «فكرة جميلة من يذهب لا يعود».

2

وفي صباح اليوم التالي، استيقظ عثمان مبكرا وحلق ذقنه على غير عادته، وأخذ فرشاة الأسنان ليستعمل معجونا بلون أخضر اشتراه بالأمس من البقالة المجاورة لمنزله، فرك أسنانه بقوة حتى كاد يدمي لثته، غسل وجهه ثم غطاه بالمنشفة، عاد ليرتدي بذلته الزرقاء التي اشتراها في العيد الكبير، أخذ ربطة عنقه الحمراء المنقطة والمتناسقة مع قميصه الأبيض، انتعل حذاءه الأسود، بدا له أنه ضيق جدا.

حمل بيده حقيبته الجلدية التي وضع بها مغلفا أبيض به صورة والده ووالدته... الصورة مضى عليها أكثر من أربعين عاما... قد تكون في يوم مولده...

هنا تذكر قول والدته... «ولدتك يا عثمان في يوم جمعة... ستفتح أمامك أبواب السعد»... فابتسم.

3

خرج من المنزل واستنشق الهواء وشعر بأنه في يوم عيدٍ، أتاه هاجس من بعيد «ما الذي يدفعك يا عثمان لأن تغادر الوطن؟»، فقال يخاطب هاجسه المتعب: «الوطن هو الناس... والناس تنهش الناس... كالأسماك يأكل بعضها بعضا».

يأتيه هاجسه مرة أخرى: «يا عثمان... نعرفك جيدا... أنت كاتب ومفكر... والوطن بحاجة إليك»، ضحك عثمان: «آه... الوطن»، ثم ضحك مرة أخرى: «كاتب ومفكر! بالأمس شاهدت صورة راقصة لم يمض على هزها لخصرها سوى أشهر قليلة... أجرت معها صحيفة «الشروق» مقابلة في نصف صفحة... أنا لم تجر معي مقابلة ولو لمرة واحدة».

4

«الوطن يا عثمان هو الناس.. والناس لا تعرف أنك كاتب... لأنك يا أخي لا تضع صورتك بالألوان في صحيفة الصباح». ضحك عثمان: «أنا أضع صورتي مع صورة راقصة؟ لا... لا لن أفعلها... أنا أقدم أفكاري ولا أقدم شيئا آخر... هل أكمل... سأكمل!».

«وقح يا عثمان، الرجاء لا تكمل»... ضحك مع هاجسه المتعب.

5

يصل عثمان إلى دائرة هبوط المركبة الفضائية القادمة عبر الزمن من كوكب أبولون... قيل إنها تعبر بسرعة خمسين مليون سنة ضوئية وعلى جوانبها أنوار تستطيع أن تضيء مدينة بأكملها.

نظر عثمان إلى دائرة التجمع، هناك بشر كثيرون... يضحك عثمان «قد يكون

جميع أبناء الوطن!» هذا من محيط غرب.. وهذا من خليج شرق، وآخر من الجنوب داكن البشرة.

حاول أن يقتحم الصفوف، الغبار يتطاير، يرفع منكبيه ويستنشق بعضا من الهواء... يسمع قول أحدهم: «فرصة ثمينة... نذهب ولا نعود».

6

السماء زرقاء، والأرض فضاء خارج بؤرة التجمع، ولا وجود لمركبة فضائية، هناك رجال أمن وضوضاء، ورجل أصلع يبيع المشروبات الغازية... يقف بجانب عربة بيضاء.. يخاطب المتجمهرين بصوتٍ مرتفع:

- اشربوا... اشربوا قبل أن تغادروا.. اشربوا فقد تكون آخر فرصة لكم.

يخاطبه رجلٌ آخر:

- وهل ستغادر معنا؟

يلتفت نحوه:

- نعم سأغادر... وسأبيع لكم في كوكب أبولون مشروبا من نوع آخر... هناك لن يلاحقني رجالُ البلدية... لأن رجال البلدية هنا لا يلاحقون إلا الفقراء.

يقترب منه عثمان... ويشتري منه مشروبا غازيا بطعم البرتقال... رجل آخر يشتري مشروبا غازيا بطعم الفراولة.

7

هناك نساء أيضا... وتلك المرأة تبدو في كامل أناقتِها... هل ستركب المركبة أيضا؟ يبتعد عنها عثمان خشية أن يقال إنها زوجته، فهو - عثمان - يكره النساء كرهه لرقابة وزارة الإعلام والتثقيف.

8

سار عثمان نحو تجمع كبير، وابتعد عن مصوري الصحافة والتلفزيون... كانوا

يلتقطون صورا عديدة للمتجمهرين... أكثرهم كان يضع يده على وجهه.

9

اقترب من مركز دائرة التجمع، كان هناك أحد الصحافيين يوجه أسئلة إلى مجموعة من الرجال، أحدهم أبيض البشرة، وآخر أسود البشرة، وثالث لا أسود ولا أبيض.

اعتلى المصور المرافق للصحافي برميلا متوسط الحجم صبغ بلون أصفر... وأسود... قال بصوت مرتفع:

ـ يا إخواني معكم صحفية «الشروق» سنجري تحقيقا صحافيا بمناسبة قدوم مركبة كوكب أبولون القادمة بعد قليل، نود معرفة سبب مغادرتكم للوطن.

تأتي إجابة أحدهم بصوت أجش:

ـ وهل نحن مجبرون على البقاء.. لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا.

رد آخر بعصبية:

ـ اسكت أيها الغبي... فقد يكون هذا من رجال السلطة!

10

يبدو أن المتجمهرين اقتنعوا بفكرة المصور الذي طلب منهم أن يصطفوا بطابور يذكرهم بطابور الخبز في مدنهم التي تلفظ النساء أطفالهن عند الولادة كالفئران... وبلا مستقبل.

قال رجل طويل القامة مخاطبا الصحافي:

ـ لقد هاجر أخي محمد لأمريكا بعد أن أنهى دراسته هنا...

لقد مضى عليه الآن سبع سنوات، وبالأمس أرسل لنا صورة له ولأفراد عائلته... الآن هو يملك منزلا وسيارة وأصبح رجلا محترما يعرف حقوقه ويعي واجباته.

قال عثمان مخاطبا الرجل:

ـ وأنت؟

التفت نحوه الرجل.. وقال بحسرة بينما الصحافي يضع آلة التسجيل قرب فمه:

ـ أنـا... أنـا؟ (وضرب بيـده عـلى صـدره)، أنـا أبـدو كَثَـور السـاقية... أدور... أدور ولا أعـرف حـاضري مـن مسـتقبلي.

ضحك أحدهم:

ـ على الأقل ثور محترم.

ضحك الملتفون حول الرجل... الذي اعتراه الخجل.

11

مواطـن آخـر تقـدم إلى الأمـام وراح يتحـدث للصحـافي... بلغـة أقـرب إلى الفصحـى منهـا إلى العاميـة، فقـال:

ـ أنـا شـاعر أنشـد الارتقـاء بالمجتمـع.. أعشـق الصـدق، أجسـد أفـكاري وأحلامـي عـلى الورق.

فقاطعه أحد الحضور:

ـ نريد قصيدة يا شاعرنا.

اعتلى الشاعر البرميل الأصفر وأخرج ورقة بيضاء وراح يقرأ بصوتٍ جهوري:

- «النمل يأكل النمل

القطة تأكل صغارها

وأنا وأنت يا حبيبي

يأكلنا النمل».

ضحك الجمهور إلا عثمان فقد فهم ما يعنيه الشاعر.

قال رجل بعصبية:

ـ من يفهمك يا شاعرنا... نحن في عصر البترول والمال والذرة والأقمار الصناعية!

اسـتاء الشـاعر... عندمـا رأى الجمهـور ينفـضّ مـن حولـه وقـال وهـو يـضرب بكفـه عـلى صـدره:

ـ يا للحسرة «في عصر زيت الكاز... يطلب شاعرٌ ثوبا وترفل بالحرير قحاب».

وأومأ الشاعر بيده نحو امرأة كانت تقتحم الصفوف وترتدي لباسا غير محتشم.

12

اقترب الصحافي من رجل بدا بائسا... وكان يردد:

ـ متى تصل المركبة؟

قال الصحافي:

ـ بعد قليل... وهل تريد الهجرة؟

ـ نعم... فقد أحصل على عمل... يقال إن الوظائف متوافرة... أفضل من هنا.

ـ عمل في كوكب أبولون؟ (يضحك).

ـ يقال إن الرواتب خيالية.

ـ ولماذا الهجرة... أمن أجل وظيفة؟

ـ نعم... فقد أوصدت أمامي أبواب الرزق هنا.

قال الصحافي... وهو يقلب شريط التسجيل.

ـ تبدو رجلا فاضلا.

ـ نعم... هذا سبب مأساتي.

ـ لم أفهم؟

ـ كنت مواطنا صالحا... وأصبحت مواطنا بائسا... هل ترى هندامي؟!

قال الصحافي:

ـ أرى... أرى... ولكن الرجاء الاختصار... أخبرني ما الذي جعلك هكذا... فشريط التسجيل مدته محدودة؟

أجاب الرجل:

ـ كنت أعمل في إحدى المؤسسات المالية بوظيفة محاسب واكتشفت ذات يوم حالة اختلاس بمبلغ نصف مليون دولار ولم أتوان عن إبلاغ الإدارة... رغم أن زملائي نصحوني بغض الطرف.

ـ وبعد ذلك ماذا حدث؟

ـ طبعا رفضت أن أسحب التقرير... ولكن ما حدث لم يكن بالحسبان حتى أنه ذات صباح وأنا أهمُّ بشرب الشاي في الكافتيريا حدث أن اقتربت مني سوزان موظفة الكافتيريا... وبحركة فجائية وضعت يدها على جزء حساس من جسدي، وقمت بحركة لا إرادية بوضع يدي على صدرها ودفعتها إلى الخلف.

ـ وانتهى الأمر؟

ـ لا... قامت سوزان بالصراخ أمام رواد الكافتيريا وادعت أنني خدشت حياءها، ورفعت القضية إلى الإدارة القانونية واتهِمْتُ بارتكاب فعل شائن وتم اتخاذ قرار بإنهاء خدماتي... فورا... ونجح «الملعوب» وبقي المختلس في وظيفته!

ـ ولكن أين حقك؟! هذا ظلم.

ـ ألم تفهم. نجح «الملعوب»، ولكن هل تعتقد أنني سأحصل على وظيفة في كوكب أبولون؟

ـ ولم لا؟!

13

يقبل رجل له لحية طويلة وبثوب أبيض قصير، وكان يردد بصوت مرتفع:

ـ لماذا تتكالبون على مغادرة الوطن؟ لماذا تغادرون هذه الأرض الطاهرة؟ فأنتم خير أمة أخرجت للناس.. تأمرون بالمعروف.

يأتي صوت من بين الجموع:

ـ بل نحن الآن «أتعس» أمة... بعد أن ألغينا استعمال العقل... واكتفينا بالتفكير من خلال عقول أسلافنا.

قال عثمان:

ـ اسكت يا هذا... هؤلاء سطوتهم أشد... فرقابة الحكومة تأخذك إلى السجن... أما هؤلاء فرقابتهم تأخذك إلى القبر!

14

ابتعد عثمان ليستنشق بعضا من الهواء، استرخى قليلا... اقترب منه أحدهم وقال:

ـ يقال إن في كوكب أبولون... لا يوجد جنة ولا نار... ولا عذاب آخرة.

ابتسم عثمان:

ـ يا أخي ألا يكفينا عذاب الدنيا... حتى تذكرنا بعذاب الآخرة؟ ابتعد قليلا.

يكمل الرجل:

ـ فعلا... أن تستيقظ صباحا لتبحث عن لقمة العيش لصغارك... هذا عذاب كبير!

15

بينما هو يشعل سيجارته ويجلس على قالب أسمتني اقترب منه صحافي آخر... قال:

ـ هل بالإمكان إجراء لقاء صحافي؟

شعر عثمان بسعادة غامرة... وهو يصغي لكلمات الصحافي التي بدت أكثر تهذيبا... أجاب وهو يضع رجله اليمنى على ساقه اليسرى:

ـ تفضل.

ـ أراك متلهفا... للصعود إلى كوكب أبولون؟!

ـ طبعا كغيري... انظر لهذه الجموع.

ـ وما الذي يدفعك لذلك؟

قال عثمان: وهو ينفث دخان سيجارته من فمه:

ـ أنا كاتب... لي رواية طبعت خارج الوطن... ومنعت من التداول هنا... مسكينة لم تشم رائحة الوطن.

أردف عثمان:

ـ هل أسترسل؟

أجاب الصحافي.. وهو يقرب آلة التسجيل:

ـ تفضل... فاليوم متعب جدا... والمركبة العجيبة تأخرت.

أكمل عثمان حديثه وهو في حالة استرخاء:

ـ عندما كنت طفلا... كنت سعيدا جدا... لأنني لا أفكر بقضايا الوطن... أما الآن فإنني متعب جدا... أفكر في الوطن وفي الناس وفي المستقبل، وأمرض كل يوم لأن أحلامي تتلاشى كانقشاع سحب هذا اليوم الربيعي.

كان يود أن يكمل حديثه ولكن الصحافي... انسحب دون أن يستأذن... شعر عثمان بإحباط داخلي شديد... وقال مخاطبا الصحافي الذي توارى عن الأنظار:

ـ نحن الكتاب «نعطيكم الفرح الجميل... وحظنا حظ البغايا ما لهن ثواب».

وراح يكمل تدخين سيجارته.

16

صوت من بعيد:

ـ انظر... ها هي مركبة أبولون قادمة.

رجل آخر:

ـ أيها الغبي... هذه طائرة مروحية تقوم بتصويرنا.

قال رجل له شوارب طويلة:

ـ يقال إن نساء أبولون أشبه بالحوريات لا يمل الرجال من معاشرتهن!

ابتعد الرجل بعد أن رأى امرأة ضخمة الأرداف تقترب منه.

17

الكل كان بانتظار وصول المركبة، انتصف النهار، صعد رجل على برميل أزرق... راح يرقب الرؤوس المتحركة كأمواج البحر.

صاح آخر كان يستمع لراديو صغير:

ـ إذاعة لندن تقول إن مركبة أبولون دخلت حدودنا الغربية وهي الآن تتجه نحونا.

قال آخر... وهو يرفع يده للسماء:

ـ الله أكبر... الله أكبر... جاء الفرج من إذاعة الإنجليز!

سرت قشعريرة في جسد عثمان... راح يتلمس حقيبته الصغيرة ووقف... يرقب السماء.

اقترب منه شاب يرتدي ملابس رياضية ملونة... وعلى شفتيه ابتسامة لا معنى لها... سلمه ورقة صغيرة بحجم راحة اليد... واختفى وسط الزحام.

فتح عثمان الورقة... وراح يتمعن في حروفها... ألقى سيجارته جانبا، أعاد قراءة الورقة مرة أخرى... حروفها... كتبت بخط صغير «نأسف على هذا الإزعاج... اليوم هو الأول من أبريل... صحيفة الشروق».

شعر عثمان بانكسار داخلي شديد، خليط من الألم والمهانة... التفت حوله وراح يرقب أولئك الذين يرقبون السماء بانتظار الخروج من دائرة الوطن.

فوق السطوح

1

كان الإعلان مغريا، مغريا جدا، فلم يتوقع مسرور البلداني أن تعلن المنظمة العالمية لحقوق الإنسان أن قمرها الصناعي المسمى «أحرار 2» سيعبر أجواء الجمهورية العربستانية. وجاء في الخبر الذي بثته إحدى الإذاعات الأجنبية أن القمر «أحرار 2» سيتوقف لمدة نصف ساعة في السماء، وبإمكان السكان مشاهدته بالعين المجردة، حيث سيطلق ألوانا حمراء وزرقاء بشكل متقطع، لهذا على جميع سكان نواحي الجمهورية العربستانية ممن لديهم شكوى تتعلق بحقوق الإنسان، أو شكوى ضد النظام السياسي القائم مما يترك أثرا سلبيا في الحد من حريتهم الشخصية أو الفكرية أو الدينية، فما عليهم سوى الوقوف بشكل مستقيم ورفع الرؤوس باتجاه القمر، وأن يكون الوقوف في الهواء الطلق أو فوق السطوح، وبث شكواهم بصوت مسموع، وسيقوم القمر «أحرار 2» بالتقاط جميع الشكاوى ودراستها، ومن ثم التحقق في مدى التزام حكومة الجمهورية العربستانية بميثاق حقوق الإنسان الموقع عليه من دول العالم كافة.

2

كان مسرور البلداني سعيدا جدا، فقد قرر هو وجميع أبناء الحي الوقوف فوق السطوح في الساعة الثامنة من مساء الرابع من أبريل والصراخ بصوت مرتفع وبث شكواهم، وكذلك أم عطية تساءلت عما إذا كان بإمكانها أن تبث شكواها للقمر الصناعي ضد زوجها أبوالسبع الذي تزوج عليها وأهمل حقوقها الشرعية وهجرها مما يعرضها للفتنة! وأبوفلاح السرواني تحدث مع مسرور البلداني طويلا، وقال: هل بإمكانه أن يتحدث عن سبب استدعاء ابنه الصغير للجندية رغم أنه مازال يتلقى دروسه في المراحل الدراسية الأولى، وهل من حقه أن يتمتع بطفولته وفقا لحقوق الإنسان؟

أما مسعود الكوكبي فقال: لقد شكونا لله مرارا ضد حكومتنا وديكتاتوريتها، ولكن لم يستجب لنا، فكيف نبث شكوانا لقمر صناعي؟! ومسعود الكوكبي كان ناقدا سياسيا متمكنا، ولكن بعد أن تم استدعاؤه ذات مرة من قبل دائرة المخابرات الثقافية وتم الاستماع إلى آرائه وكان الاجتماع ديموقراطيا، فقد قرر بكامل إرادته وبدون ضغط وإكراه التوقف عن الكتابة في الشأن السياسي، وقرر الكتابة عن الزراعة وعن الأمراض التي تؤدي بالنخيل إلى الهلاك.

3

مسرور البلداني كان مزهوا وهو يعلن أنه سيتحدث بصراحة ضد النظام السياسي القائم غير المنتخب شرعيا، والذي استولى على الحكم بواسطة الدبابات وليس بالانتخابات.

ذكرت كتب التاريخ أن الدبابات جاءت ذات مساء، واستولت على الحكم الشرعي وأعلنت الثورة، قالت له والدته إن والده رحمه الله قال إن مسرور ابنه ولد مع الثورة وسيكون مسرورا إلى الأبد إن شاء الله.

4

سطع القمر الصناعي «أحرار 2» في أجواء الجمهورية العربستانية في الساعة الثامنة مساء على ارتفاع عشرين ألف قدم، وتوقف لفترة نصف ساعة، كانت السماء صافية والرياح شمالية غربية، وإذاعة الجمهورية العربستانية كانت تبث أغاني وطنية حماسية، كان اللافت للنظر أن القمر الصناعي «أحرار 2» لم يتلق شكوى واحدة من أي مواطن أو مقيم، وكان مؤشرا حسنا وتسجل لمصلحة النظام السياسي القائم، ودليلا على تمتع المواطنين العربستانيين بحقوقهم كافة وفقا لميثاق حقوق الإنسان العالمي.

5

ولكن رسالة وصلت إلى إحدى الصحف بعد ثلاثة أشهر، أرسلها مجهول، ذكر فيها أن الحكومة العربستانية اتخذت قرارا في لحظة عبور القمر الصناعي «أحرار 2» حيث منعت التجول في الطرقات للإنسان والحيوان والجماد، وكذلك منعت أي كائن من الوقوف فوق السطوح، ومن يخالف ذلك يكن مصيره الإعدام كونه خالف تعليمات أولي الأمر وخالف تعليمات الخالق فالشكوى لغير الله مذلة.

الرسالة التي أرسلها مسرور البلداني لم تنشر لكونها ليست مذيلة بأي اسم أو توقيع، ولكن مسرور البلداني لم ييأس وسينتظر قدوم الدورية لحقوق الإنسان في الحكومة العربستانية.

إشارةُ خلاصٍ واحدةٌ

اسمها ابتهاج، لا أثر لعلامات البهجة في يومها الطويل، اقترانُها به منذُ خمسةَ عشرَ عاما، بزواج رتّبه الأهلُ، أوقع حجرَ حظِّها في حفرة سحيقة، لم يكن هناك ما يسعدها في علاقتهما الصعبةِ، باستثناء لحظاتِ أمومتِها المتدفقةِ عندما تمتزج بضحكة طفل من أطفالها الأربعة.

لم يكن بخلُه الشديدُ وعدمُ تحمّله المسؤوليةَ كزوج وأب سببين رئيسيين من أسباب الشقاء والنفور، فظاظتُه وسلاطةُ لسانه هما حلقتا التعاسة الأزليتان حول عنقها الطويل.

بفستانها القطنيّ الواسعِ المشجّر بورود الجوري القرمزيةِ جلستْ ومِنْ حولِها أطفالُها، بعد أن جلبتْ الطبق الأخير من المطبخ، جلسَ قِبالتِها على الأرض، حيث المائدةُ التي أعدّتها فور عودتها من عملها وتوصيل الأطفال من مدارسهم.

بصمتٍ معتادٍ فتح أغطية حافظات الطعام البلاستيكية بعد أن أطفأ سيجارته، جال ببصره على السفرة كذئب يشمّ رائحة الفريسة، رفع رأسه نحوها، متحاشيا النظر إلى أطفاله، قائلا بهدوء مصطنع، ونصف ابتسامة ترتسم على شفتيه الداكنتين من أثر التدخين:

- «من قال لك إني أريد أكل الدجاج بالفرن اليوم؟».

لم ترفع رأسها كي لا تلتقي نظراتها المندهشة بنظراته المتصيدة لأي هفوة لفظية محتملة، البخار المتصاعد من طبق الأرز الأبيض لم يكمل طريقه إلى الأعلى، يد ضخمة قذفت بسرعة بكل الأطباق على السفرة إلى الحائط الأصفر، امتزجت قطع الدجاج بمحتويات طبق السلَطة على الأرض، بينما تَكثّفَ بخارُ طبقِ الأرزِّ على الجدارِ الباردِ مكوّنا دموعا تنزلقُ للأسفل.

هُرع الأطفال لغرفهم، وقد تلاشى إحساسهم القويُّ بالجوع، وحلّ بدلا منه شعورٌ طاغٍ بالقلق على ملاذهم الوحيد.

ركّزت نظرها على صدر الدجاجة الذي سقط قرب الستارة الجديدة التي دفعت ثمنها قبل يومين، تمنّت لو ابتلعت مخلوقاتُ سخطه الأزليةُ صحتَه،

لعلّ سطوتَه تخفتُ بعد خمسة عشر عاما من الصبر الذي يدفن مريديه من دون إشارة خلاص واحدة!

****

في الصباح عندما تذهب لعملها كباحثة اجتماعية تطرقُ أبواب البيوت التي يعاني أفرادها أوضاعا مادية واجتماعية متعبة، تُخرج أوراقَها، تدوّن مشاكل المطلقات والأرامل وطلباتهنّ، تستمع بانتباه لتفاصيل حياتهن المختلفة.

أحيانا كثيرة عندما يسترسلن بأحاديث مطعّمة بالأسرار تنسكب الدموع أمامها بلا خجل، الغريبةُ رسولةُ وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل تصبح قريبة بعد السؤال الثالث وكأس الماء البارد والقليل من المجاملات. لا يكترثن إلا لاسمِها الأوّلِ وموعد الموافقة على طلبهن الإعانة الحكومية.

عندما تودّعهن بعد ساعة الزيارة تركب سيارة الوزارة التي يقودها السائق، وهي تشعر بثقل صرّة الأسرار على كتفها.

****

نبتت الأشواك فوق أغصان ورود الجوري القرمزية على فستانها الأبيض. في غرفة المعيشة بالدور الأرضي لا أحدَ سواهما، والمسافةُ الفاصلةُ بينهما هي بالضبط طولُ سفرة الطعام الذي سُكب أغلبُه على الأرض، ترفع رأسها بالتدريج، مستشعرة الخطر المتربصَ بفضائها الضيق، تحدّق بقطرات العرق على جبينه، وبصدر الدجاجة المُلقى عند الزاوية، وجهُها لا يُشي بخوف، ينظر إليها باستهزاء ممزوج بالتحدي، تعضّ لسانَها المتخمَ بمفردات التراجع.

أربعةُ أطفال... رجلٌ يسحق جسورها... زياراتٌ تجلب الكآبةَ... تقاريرُ يوميةٌ عن اللواتي زهدن بالرجال.. خمسة عشر عاما من اختبارات التحمل... شتائمُ تصل لنوافذ الجيران... امرأةٌ جاوزتِ الأربعين تُهتَك كرامتُها بصفعة وبصقة... حاجتُها الماسّةُ إلى العمل... صغارٌ بذاكرة متعبة يختبئون في الغرفة كلما أسرف

والدهـم في انفعالـه.. بالإضافـة لذلـك سـتارتها الجديـدةُ اتسـختْ بصـدر الدجاجـة التـي كانـت تشـتهي بشـدة أكلَهـا قبـل دقائـق.

****

ظهـرَ اليـوم، وهـي تنتظـرُ داخـل سـيارتها القديمـة قـرب مدرسـة بناتِهـا الابتدائية، والهـواء الحـار ينبعـثُ مـن فتحـات التكييـف، والكثـيرُ مـن الآبـاء يعـبُرون الشـارع أمامهـا، مُمسـكين بحقائـب بناتهـم المدرسـية، وابتسـامةٌ حنونـةٌ تطـلّ مـن وجوههم المألوفـة، تسـاءلت: مـا الـذي يُجـبرني عـلى الحيـاة داخـل القفـص؟! سـؤالٌ كانـت تخبّئـه تحـت عتبـة دارهـا كلغـم خـادع، تملـكُ الإجابـةَ لكنّهـا لا تملـك القـرارَ.

الباحثـةُ الاجتماعيـةُ التـي تتنقـل باعتياديـة بـين المنـازل المتواضعـة تـدسّ أنفَهـا برسـمية في همـوم الآخريـن إن طلبـوا المسـاعدةَ الحكوميـةَ، مـا الـذي يجعلهـا تبتلع نصائحَهـا للسـيدات الـلاتي تخلّصـن بمشـقّة مـن عذابـات الأزواج إنْ تذكـرتْ أنّهـا الأخـرى ضحيـةٌ تكفكـف دمـوع الضحايـا بتتابـع أبـديٍّ؟!

***

تنهـض مـن الأرض، وهـو مـازال جالسـا وسـط سـاحة معركتـه المقبلـة، تشـعر بثقـل غريـب في قدميهـا، الشـوكُ ينمـو بعنـاد عـلى أغصـان الجـوريّ، تبقـى الـورود الناعمـةُ نائمـة بسـلام عـلى بياض فسـتانها القطنـيّ، بينما عـشراتُ الأغصان بأشـواكها الداميـة وبحفيفهـا المتصاعـد تتجـه نحـو التخلـص مـن رباطهـا الأخـير.

للمـرة الأولى تتحـرّر الكلمـة الفاقعـة المحبوسـةُ في إنـاء الرهبـة، تباغتـه بهـا، ولا تلتفـت للـوراء، حيـث التفّـتْ أغصـانُ الشـوك حـول رقبـة الرجـل العنيـف مبـشّرة بالخـلاص.

مرّ منْ هُنا

«بوعبث» مرّ منْ هُنا. رائحة سجائر ابن الخامسة عشرة، خطواتُه السريعةُ على العشب الأصفر، أصباغه الحمراء والسوداء على المراجيح، كلماتُه البذيئة على الكراسي، شتائمه الداكنة ولعناته. رسوماته على سور الحديقة لأعضاء تناسلية ووجوه عابسة وصدور ممتلئة.

نباتات الحديقة زفرت أوكسجينها المكبوت ما إن قاد «بوعبث» دراجته مغادرا، تاركا شماغا أحمر في مغسلة حمّام السيدات بعد أن استمنى به.

حتى سلال المهملات الغاصة ببقايا الطعام وعُلَبِ الوجبات السريعة لم تسلَمْ من تحرّش المراهق العنيف، وحدَها قناني المياه الفارغة المُلقاة بين نخلة وأخرى لم تلتفتْ لزيارتهِ المزعجةِ.

في طريقِ عودتهِ للمنزل كَتَبَ على سُور مدرسته الثانوية «المدرسةُ للبيع مع الناظر مجانا».

مرور عوض في صالة تحرير الصحيفة يُحدِثُ ربكة مباغتة، البعض يحيّيهِ بسلام مبالَغٍ فيه، وآخرون يتجنبون الالتفاتَ نحوه، غالبا ما يثير الانقسامات بشأن كتاباته اللاذعة بين المحيطين به. يكتبُ زاويتَه اليوميةَ بجرأةِ مَنْ يملكُ قضية عادلة، يدخّن بشراهة. مكتبه الوحيد بلا نباتات ولا كتب. على الجدار ألصق عبارة «لا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة».

«بوعبث» في الثامنة عشرة من العمر، يرقب أطفال أقاربه الذين يتعاركون في حوش منزله، الرابحُ سيهبه نقودا، ينشبُ الولدان أظفارهما في جسدَي بعضِهما، لتزداد حدة اللكمات بعدها، أحدُهما يوشك على الاستسلام بعد أن خارت قُواه، حبّات عرق نزقة على جبينهما، يبتسم منتشيا، يترنّح أحدُهما قبل سقوطه، يصفّق للفائز، ويبصق على المهزوم، مبتعدا عنهما بعد أن رمى بورقة خمسة الدنانير على الأرض، يقود سيارتَه في شوارع المنطقة، الموسيقى الصاخبة تخرج من النافذة، مادة لسانَها للمارة.

مَهمّةُ عوض تصفية الخصوم بالكلمات والافتراءات، وبناء التهم كبيوت الرمل على الساحل. باستطاعته الكتابةُ عن أي شخص والاشتباك معه طالما

مُـلاّك الصحيفـة مقتنعـون بمواقفـه. كلّ صبـاح يقـرأ التعليقـات الإلكترونيـة عـلى مقالـه، معجبـوه نقطـة في بحـر معارضيـه، قليلـة الأشـياء القـادرة عـلى اسـتفزازه، طالمـا لديـه القـدرة الفوريـة عـلى الـرد والمنـاورة.

ليلـه طويـل مملـوء بالمغامـرات والأحاديـث النرجسـية، غالبـا مـا تداعبـه نشـوةُ أنَّ مقالاتـه تنسـج أحاديـث المدينـة الصباحيـة، وتغـيّر خـط سـير الأحـداث.

«بوعبـث» في العشريـن مـن العمـر، طالـبٌ يخـطُّ عـلى طـاولات مكتبـة الجامعـة عبـارات نابيـة عـن الزميـلات والزمـلاء، يثـير الإشـاعات حـول دكاتـرة المقـررات التـي يرسـب بهـا. عندمـا يكـون مزاجـه رائقـا يخـدش السـيارات الجديـدة في المواقـف المظللـة بطـرف مفتاحـه، تـاركا توقيعَـه كذكـرى «بوعبـث مـرّ مـن هنـا». في السـنة الثالثـة فُصِـل مـن الجامعـة بعـد فضيحـة توزيـع صـور رفيقتـه الطالبـة عـبر البلوتـوث.

قضيـة اليـوم ربّمـا لا تكـون قضيـة الغـد بالنسـبة إلى عـوض، نبرتُـه الحـادة الممزوجـة بمهـارة الصنعـة جعلتـه اسـما لامعـا في عـالم الكتّـاب المأجوريـن. لديـه قـدرة عـلى تحويـل الجـلاّد إلى ضحيـة ببضـع عبـارات رشـيقة. كـما تسـتطيع أناملـه حَبْـكَ قصـص تفطـر القلـب عـن الفسـاد المسـتشري بـين أروقـة الجهـات الحكوميـة، متجنبـا ذكـرَ الـوزارة التـي لم يزرْهـا يومـا، والتـي تضـم اسـمه ضمـن كشـوف العاملـين بهـا.

عـوض في الثلاثـين يحمـل يقينـا بـأنْ لا شيءَ بـلا ثمـن، وهـو يضـع شـهادة جامعيـة في الاقتصـاد مـن جامعـة عربيـة مشـبوهة في إطـار خشـبي، لم يتطلـبْ الأمـر سـوى بعـض الـرِّشى، ورحـلات دفـع رسـوم التسـجيل وحضـور الامتحانـات المعروفـة إجاباتهـا سـلفا.

لـولا كتاباتُـهُ اللاذعـةُ واسـتكلابُهُ في الدّفـاعِ عنهـمْ لَـمَا دُعـي إلى الولائـم والأعراس ورحـلات القنـص ومخيـمات الصحـراء والحفـلات الصاخبـة لـدى عِليـة القـوم، ولما أصبـح وجهـا مشـهورا يتحـدث عنـه شـباب المنطقـة برَيبـة، مسـبغين عليـه هالـة مـن الغمـوض.

حياتـه مليئـةٌ بالهدايـا، مـن قلـم الحـبر إلى السـيارة الألمانيـة الفارهـة التـي يحرص عـلى أن تكـون قـرب عينيـه، مـن نافذتـه في الصحيفـة أو البيـت يطـلّ عليهـا خوفـا مـن طـرَف مفتـاح عابـث.

عـوض في الخامسـة والثلاثـين، يمـشي في خيـلاء عـلى رخـام البهجـة، مخبئـا ألوانـه وأقلامـه في جيبـه، يبتسـم لعدسـات المصوّريـن، يجلـس ليسـجل بياناتـه في طلـب الترشّـح بمكتـب الـوزارة، مدفوعـا برغبـات عنيفـة!

المنصة

صُلّيَ علينا، ودفنْا، وكان عزاؤنا كفهد العسكر.

كنت أجلس في مقهى، وجلس على يميني صديق، المكان خال وقت الظهيرة، والنادلون أصابهم الخمول، وقهوة على الطاولة من أمامي، طلبتها حجة للجلوس، وقنينة ماء لصديقي لم تفتح بعد.

أجسادنا مكان، وأرواحنا في مكان آخر، وكنت أسمع الصمت هنيهات، وتعود روحي حيث كانت، قبل أن يقطع الصديق كل هذا: بماذا تفكر؟ واتجهت أنظاري ناحيته من دون حراك، وشهقت أكثر من مرة، وزفرت مرَّات، حتى أجبته: مكلّف بكتابة همومي.

انتظر ثانية، قبل أن يطلق ما أشبه بتنهيدة ساخرة: أين المشكلة؟

ووجدتني تحت طائلة المساءلة، معرفة المشكلة، ومعرفة الهموم، وكتابة هذا وبوح ذاك، وما أدركت أمري إلا حين وجدت الإفضاء هما آخر، وسأجلس أمام طاولة أو على منصة أتحدث بما يزعج مسامع الحضور، وربما يسرح أحدهم وآخر يعبث بهاتفه، وألحظ هذا وأرصده فأتعثر في كلمة أو يسقط حرف، ولمّا أنتهي، سيطوّق مسامعي تصفيق حار، سأرضى حينها، وسيصافحني البعض قبل أن أرحل، وعلى الفراش قبل أن أنام سأتذكر أن هناك ما أزعجني، ولن أرضى..

- ارتدِ نظارة.

الصديق تفوه.

- واجلس هكذا.

استرخى جسده على الكرسيّ، وأشبكَ أصابعه عند بطنه.

- واترك ذقنك ينمو قليلا... وادعكه بأطراف أصابعك كل حين وآخر.

وعند جملته تلك، ظننته انتهى، لكنه استدرك: ثمة أمر أخير... لا ترتدِ غترة وعقالا.

وداخلني شك بأن في طيات فلسفته تخاريف، حتى تمثيله المتقن أثناء الحديث، وثقته المفرطة، ولكنته التي تقول: الأمر بسيط... الأمر بسيط... تجاوزت هاجس الإعداد والإلقاء، وخطر لي ألا أتطرق إلى هموم عامة مستهلكة، كنت قد تذمرت

منهـا سـلفا، وتكـون مـادة كسـؤال متوقـع ومكـرر كلّـما حـاول أحدهـم أن يـزج بي إعلاميـا... كيـف بـدأت؟ متـى بـدأت؟

لكنني حاولت أن أستفزه بسؤالي: وأستند بهمومي إلى أبيات لفهد العسكر؟

والتفت إليّ وقد تخلى عن زفرة قوية كاد يطلقها: ماذا يعني؟

فأجبته باستنكار: ألا تعرف فهد العسكر؟

لـوى شـفتيه: سـمعت باسـمه مـن قبـل... ونظـر إليّ بإمعـان وتابـع: ليـس مهـما مـا تقـول، المهـم مـا أخبرتـك بـه، النظـارة... الجلسـة المسـترخية... أصابعـك المشـبوكة... ذقنـك... ودعكـه باسـتمرار... واحـذر أن ترتـدي غـترة وعقـالا... احـذر.

وبـدت لي وكأنهـا بديهيـات يسـتند إليهـا عنـد الإلقـاء، وسـاورتني رغبـة في معرفـة أسرار عنـاصره تلـك، متجـاوزا تحذيـره الأخـير.

- لِمَ الذقن؟

فاسـتطرد قائـلا: لـو خرجـت ببشرتـك البيضـاء تلـك المائلـة إلى الاحمـرار، فلـن يهتـم إليـك سـوى فتـاة قريبـة مـن عمـرك، ربمـا قد حـضرت خطـأ إلى ذلك المـكان، وسـتكرهك بعـد خمـس دقائـق مـن بـدء الحديـث، ولكنهـا سـتصر عـلى البقـاء حتـى تبتسـم إليـك بحيـاء مصطنـع، وسـتجاملها، وينتهـي الأمـر عنـد ذلـك. وربمـا... وهـذا سـيكون مـن حسـن حظـك، سـتنتظر الفتـاة ولـن تـترك المـكان قبـل أن يحـدث شيء، وسـتلحظ أنـت هـذا ولكنـك لـن تبادرهـا بـشيء... وليـس ثمـة مهمـوم جميـل الشـكل، لا بـد وأن يكـون هنـاك مـا يـدل عـلى...

وتوقف حديثه، وتناول قنينة الماء من على الطاولة، وراح يحاول فتحها.

الشـعيرات التـي تنمـو عـلى وجهـك مـن دون ترتيـب، هـي مثابرتـك المسـتمرة، وجهـدك الجبـار، وأنـك تجلـس لتكتـب عـلى طاولـة تحيطهـا الأوراق والكتـب المرميـة دون ترتيـب، وأن صحتـك غـير جيـدة مـن أثـر السـهر والقهـوة التـي تشربهـا بإفـراط، ومـن الممكـن أن تخبرهـم بـأن أسرتـك وأقربـاءك لا يبالـون بجهـدك هـذا، سـوى رجـل – وادعـك ذقنـك هنـا – كبـير بالسـن، تعرفـت عليـه بطريقـة مـا، يجلـس وراء طاولـة عليهـا ربـع كأس مـن الشـاي، وسـيجارة نصفهـا مطفـأ مرميـة عـلى المنفضـة، وأنـك

تشكره بشدة وتتمنى لو... وهكذا.

واستدرك: أنت... أنت نفسك لا تحضر إلى المكان قبل أن تتشاجر مع صديق أو تفوّت صلاة العصر... أو... أو ترمي قطا بحجارة وتراه يتلوى ألما بفعلتك... ذلك سيكون مجديا.

وسألته بعفوية مجددا: وماذا أقرأ... فهد العسكر؟

وأجاب دون تفكير: لا أدري... اقرأ ما يحلو لك، ما الذي ممكن أن تقوله، فنصف همك ينتهي عندما تجلس أمامهم، والنصف الآخر عند بدء الشكوى، هكذا... انظروا... انظروا إليّ... تقريبا هذا ما يوحي إليه منظرك، لذا قبل أن تتفوه بشيء، استرخ على الكرسي، واشبك أصابعك على بطنك.

فعقدت حاجبيّ: ماذا يعني؟

وهمْهم قبل أن يقول: شيئا من الثقة والشك، النشوة واليأس، التواضع والغرور، لا أدري... هي متناقضات كتلك، تراها مزيجا محيرا، كأن تقول دون أن تقول.

وبدأ يجرع الماء على دفعتين.

وقبل أن يبتلع ما تبقى في فمه، رفع سبابته كأن توجد نقطة أخيرة: والنظرة... ولتكن نظرتك شبه نائمة، أعرف محللا سياسيا يظهر غالبا على قناة الجزيرة، دائما ما يجلس بتلك الطريقة، وتلك النظرة، ويسيطر على مجريات النقاش... وركّز أن تكون نبرتك هادئة متقطعة.

ثم صمت لحظة... وقال: واقرأ حينها فهد العسكر... أو ما يحلو لك.

ووجدتني فجأة، محاطا بتخاريف فلسفية، أعجبتني قليلا، وتبادر لي أن أسأله عن نقطة الغترة والعقال... إلا أنني آثرت تجاوزها، ولمّا سألته عن حاجة النظارة.

أجاب مندهشا: يا رجل! المثقف يجب أن يرتدي نظارة!

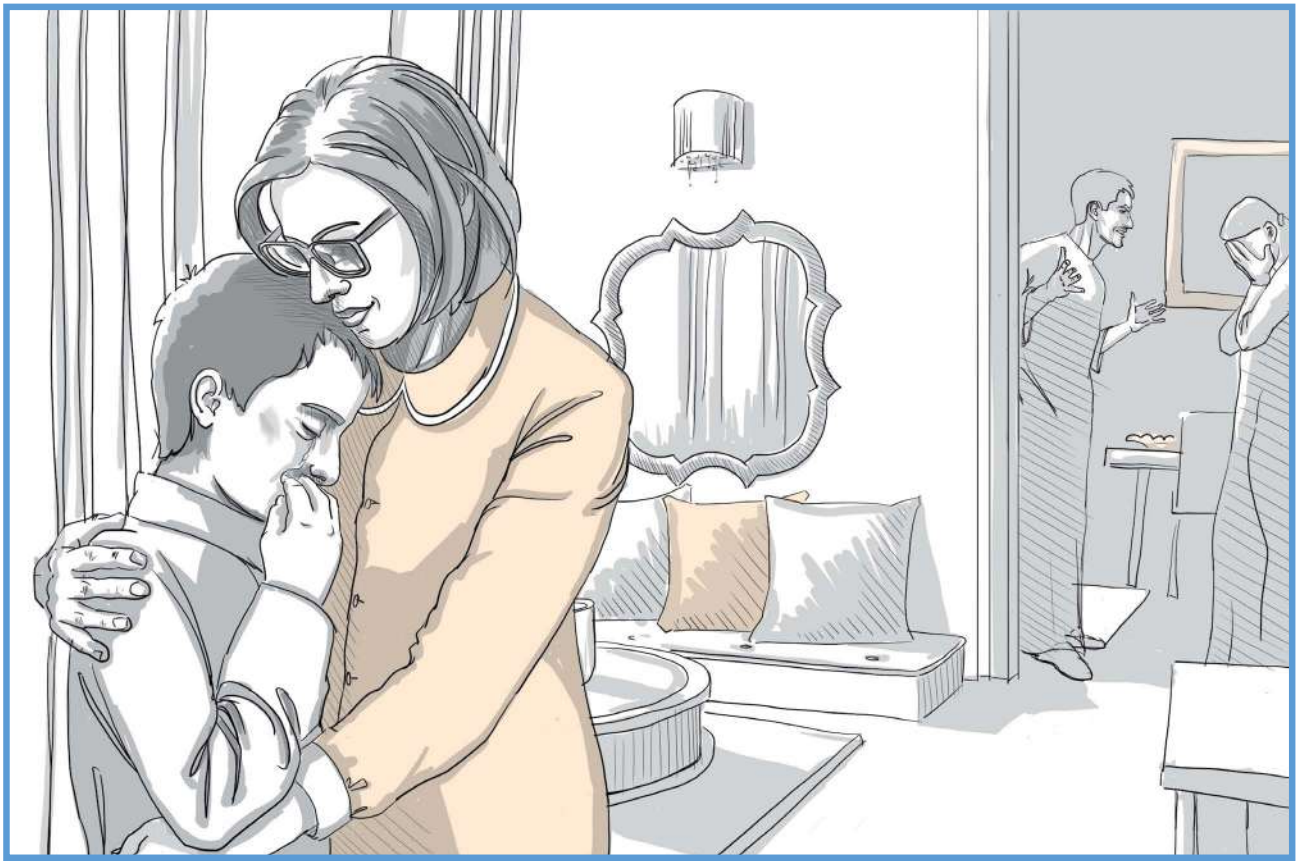

يأتي من بعيد

حفاة. ولا أتذكر كيف كنّا نفعل هذا.

أحيانا في ظهيرة شهر أبريل، يحاول أبي أن يمنعني. بعد الغداء يطوف البيت كلّه، يقفل الأبواب جميعا. المطبخ. الباب الرئيس. الخلفي. الصالة الرئيسة. ويحاول أحيانا سحبي للنوم في غرفته.

- لديّ فروض دراسية.

(حجة هروب).

في الطابق الثاني، لدى نافذة غرفة الخادمة، أعمدة سياجية - كما جميع النوافذ - تمنع الخروج أو الدخول منها. كان أحد الأعمدة يتحرك قليلا لأحد الجانبَين، تتسنى المسافة لرأسي أن يمر. عند الخروج هناك سور معلّق - ديكور - يمتد طولا مسافة قدم ونصف القدم.

المهمة هي السير جانبا وظهري يلتصق بالحائط دون أن أنظر للأسفل. أحبس أنفاسي، حتى أصل إلى نهاية السور، عندها، يكون سطح مرآب البيت قريبا. أقفز عليه، ومنه إلى حديقة المنزل.

الخروج من البيت بهذه الطريقة، لا بد أن تكون دون حذاء.

(أحذيتي رهن غرفة أبي... حتى غروب الشمس).

حفاة.

ليست هناك أيّ مشكلة. في العادة، أنا وصحبتي، نلعب كرة القدم في المواقف الخاصة بالمدرسة القريبة، دون أحذية، اعتادت أقدامنا العارية على ترويض الكرة. ترانا نستخدم الأحذية لتحديد المرميين. الإسفلت قاس، الحرارة ملتهبة، هناك حصى متناثر يوخز الأقدام، أو بقايا زجاجة بيبسي مكسورة. نحاول قدر المستطاع، أن نتحاشى دعس تلك الأشياء... قدر المستطاع.

على الجانب الأيمن من مواقف السيارات - الملعب - هناك مسجد.

بعد الانتهاء من اللعب، يكون محطة استراحتنا. نشرب ماء، نغسل أرجلنا في صنابير الوضوء، يدب حماس آخر خاص بنقاش مجريات المباراة.

لو نظرت في أخمص قدم كلّ منّا، لوجدتها جلفة، متشققة، سوداء، كريهة، مجرّحة،

مواضع منها مشوهة، يحتقن الدم في أجزاء منها. أظافرنا، منها صفراء، أخرى سوداء، حادة، ترى في بعضها آثار كسر، لو ضغطته لانفصل جزء الظفر عن الأصبع.

أعود عند مغيب الشمس، الخادمة تخرج حتى تشعل أضواء المنزل الخارجية، تستغرب عودتي، فتنتصب سبابتي أمام شفتيّ.

- لا تخبري والدي.

حفاة. ولا أتذكر كيف كنّا نفعل هذا.

***

شارع الملك فهد بن عبدالعزيز - الكويت - باتجاه الشاليهات.

تتوارد الذكريات تباعا، بينما أقود هربا، إلى الصفاء، مصاحبة الحرية، قذف الهموم.

الاكتئاب. حالة يبدأ صنعها في الصغر، نتيجة فوضى، تظهر نتائجها عند الكبر.

القمع، الحبس، قفل الأبواب، فقدان الثقة، كل تلك الأشياء كانت بمنزلة عقاب أتعرض له دونما ذنب. التمرد عليه، يودي بعقاب آخر ومن جنس مختلف، الضرب، الشتم، البصق، الصراخ.

والدي، لم يفلح يوما في ملاطفتي، حتى حينما يبدي ذلك، تكون حيلة غايتها المنع. كل ذلك ربما سأتمكن من تجاوزه.

(تجاوزه... يقتضي تجنب أبي).

أما الهاجس المزعج. ذكريات الشجار المتكررة، الصراخ لا يكاد ينفد من المنزل. الجدران أصابها الصدع، المرافق أصيبت بالهلع. الأسباب تافهة. عيناي تكتفي بمراقبة المجزرة، إلى أين سيؤول المصير؟

أحيانا، يمتد الشجار حتى الفجر. في يوم ضاقت بي السبل، هربت من المنزل، من النافذة ذاتها - نظرا إلى انشغال الخادمة بشجارهما - المشي جانبا على السور، فالقفز فوق المرآب، ثم الحديقة. جريت ناحية المسجد - هذا ما خطر في بالي - اختبأت في زاوية إلى حين أذان الفجر، عندها دخلت، وجلست مقرفصا خلف أحد الأعمدة. غلبني النوم.. وصحوت حين أذان الظهر.

هلعا، أدركت الوقت، فعدت إلى المنزل جريا. دخلت من الباب الخلفي، استقبلتني

الخادمة... شَهقت... وأخذتني من ذراعي إلى المطبخ، أراحت وجهي بكفيّها، ومسحت على صدري.

- أين كنت؟!

مازالت الصدمة تملؤني:

- في المسجد.

أمسكت بذراعي وأخفتني خلف ظهرها. دخلت إلى المنزل، وتوقفت عند باب الصالة حيث... يجلس أبي.

- لقد عاد... كان خائفا وذهب إلى المسجد.

نهض أبي واقترب.

- أين هو؟

نبرته تكاد توقد نارا:

- أرجوك سيدي... لا تؤذِهِ. سآخذه إلى غرفتي.

دفعها جانبا، فظهر جزء مني، كنت أمسك بثوب الخادمة وأحاول البقاء خلفها. بدت أمي تنزل من الطابق العلوي. شعرت بكف أبي تقبض على ذراعي، سحبني ناحيته بقوة... أخذت كفه الأخرى تهوي حيث أماكن عشوائية من جسدي... واحدة على رأسي، وأخرى على ظهري... ثم بدأ بمحاولة صفعي، لكنني كنت أخفي وجهي بذراعي الأخرى.

تحاول الخادمة منعه دون جدوى... والدتي... لا أدري أين هي؟

(الخادمة... أكثر شفقة).

أَسمَع: أشغلتنا بالبحث عنك يا كلب.

النبرة مشحونة بالضغينة:

- لم نترك جيرانا... ولا مركز شرطة... فضحتنا.

هاجس مزعج. يتكرر كثيرا في منامي، العقاب جرّاء الهرب من الألم - الآلام بأجناسها - منزلنا مركز تعذيب، لو أبلغت رجال الشرطة عنه.

تلك المشكلات مازالت تتكرر، رغم الذقن والشوارب التي نبتت، رغم خوضي

المرحلة الأكاديمية... ولن تنتهي.

يتبقى عشر دقائق حتى أصل إلى الشاليه.

***

رغم أن أقدامنا تنزف أحيانا، نتيجة دعس زجاجة، أو حصاة مدببة، إلا أن الألم لا يطغى على متعة اللعب.

بتغيّر الزمن، تغيّر الملعب، وتغيّرت طريقة اللعب.

انتقل الملعب إلى الساحة الترابية على أطراف المنطقة. مرميان حقيقيان، بقائمَين وعارضة، تحديد خطوط الملعب بزيت الديزل، أقدامنا لم تعد تركض عارية، صرنا نستعرض الأحذية الرياضية الجديدة.

أقدامنا بدت أكثر طراوة، منظرها أكثر صحة، ما عادت خشنة، جلفة، تتعرض للنزيف بين الحين والآخر، ما عادت الأظافر ذات المنظر البشع.

أثناء اللعب، أشار أحد الأصدقاء: أوه... «لاكي».

كلب مجهول الهوية، بدا بتواجده الدائم في المنطقة مألوفا لدى الجميع. لا نعرف حتى الآن، من أطلق عليه هذا الاسم - لاكي - كل ما ندركه أن هذا الكلب صديق الكل، ورغم أننا ليس المأوى الحقيقي له، إلا أنه ليس مشردا، بإدراكنا واعتيادنا مشاهدته، بصحته ومتانة عزمه، وكأنه الحارس العام للمنطقة.

(هل «لاكي» كلب أم كلبة؟).

غالبا. يجلس بجانب فرع الجمعية. مسترخيا. تراه يفتح نصف عين، يضع ذراعا فوق أخرى، ويريح عليهما أسفل فكه، إذا كان الجو لطيفا، يتأرجح ذيله، وكأن أغنية ما تتردد في ذهنه. أما في الأيام الحارة، ترى كل أعضائه مستسلمة، لا يقوى حتى على طرد ذبابة تحوم أعلى رأسه.

هذا في حالة الشبع... أما لو كان جائعا.

تراه عند كل باب بيت مفتوح، ينظر إليه بعينيه السوداوين، وشعره البني الكث المتسخ، يجلس رافعا قامته، يخرج لسانه الغارق باللعاب، متخشبا كتحيّة جندي. لا يتحرك من مكانه قبل أن يحصل على شيء. أهالي المنطقة لا يبخلون عليه بتاتا.

لاكي يأتي من بعيد، يخرج لسانه، يشم الحصى، يبحث عن شيء ما.

- ما الذي أتى به إلى هنا.

تساءل أحدهم.

ظل يقترب منّا، حتى أصبح داخل الملعب، مرر أحدهم الكرة إلى ناحيته، فوقف يرقبها، وحينما اقتربت، دفعها برأسه، وتحوّلت نحوي.

فضحكنا جميعا.

***

غدا عطلة... الخميس.

مازالت الساعة الثامنة مساء من يوم الأربعاء، بداية تعيسة لنهاية أسبوع.

في الشاليه، ربما سأتمكن من محو الأفكار الكئيبة. مخلفات الشجار ومشكلات المنزل، لا تُلقى إلا في سلّتي.

سلّتي لم تعد تسع أكثر من المهملات التي خلفها أبي في الصغر. أصبحتُ أتقيّأ الهموم في البحر، ملاذي السرّي. لا علم لأحد بملكيّتي لنسخ من مفاتيح أبواب الشاليه. في السابق كان المسجد ملاذ خوف، اللجوء إليه جريمة، العودة منه عقاب.

الآن... إدارة محرّك السيارة، أمر كفيل بعزلي عن العالم الأسود، الوصول إلى الشاليه علاج محكم، لإعادة تأهيل مقْعد أفاق من شلله.

الجلوس على رمال الشاطئ أمام البحر، أول ما يدفع به ذهني. الاستلقاء، مصير محكم في ظل الوحدة. الأفكار. صوت الأمواج. الظلام. رأسي يتكئ على كفّي، مرفقي مغروس بالرمال.

هذه الرمال، تظل طفلة طوال حياتها، تتشكل بحسب تعاملنا وإياها. ليتني كنت رملا.

تمتد ساقي، يتعرى جزء منها، ألمح بقعة لأثر لم يمحه الزمن. يقفز في رأسي سؤال، ما سبب هذا الأثر؟ وهل يمحى من الذاكرة شيء، أبقاه الزمن؟

لربما، البقايا التي خُلفت في جسدي، أنست ذاكرتي كل مدعاة ألم.

رِجل كرسي مكسور. العصا. سلاح مذنب تسبب في رسم عالم من الكدمات، جسدي

لوحة تجارب. بدأتُ أكشف أجزاء متنوعة من جسدي، بينما ذاكرتي تلوح بالمواقف المتسببة. باب حمّامي، يقابله نافذة كبيرة، غالبا ما تترك مفتوحة إلى المنتصف، أحيانا حين الخروج من الحمّام، تهب رياح قوية من النافذة، تدفع الباب ليغلق بقوة. ما إن يحدث هذا، أتوقّع بقيّة الحدث.

والدي يكره الأصوات العالية.

- كم مرة قلت لك أن تغلق الباب برفق؟

التبريرات لا تجدي نفعا، أهو يخاف أن يكسر الباب، أم يزعجه الصوت الناتج عنه؟

جسدي يتأهب للألم، وتتأهب الخادمة للدفاع، كل المؤشرات تودي بعقاب جديد، تفاصيل وجهه، صوته المشبع بالضغينة. عيناه المتسعتان. اقترابه مني. تأهب الخادمة. العصا في يده.

- لكنك حمار... لا تتعلم بالكلام... هذه ستعلّمك.

يبرز العصا... ويبرز الألم.

(الغضب على تهشم باب... بينما عظامي...).

أمي تأتي متأخرة.

هواء البحر، نسيج علاج نفسي وبدني، تمر الساعات دون إدراك - نسبيّة الزمن - أدخل إلى الشاليه لأغفو، حتى أشعر بالأمان... تلك حاجة مفقودة.

***

صحوت. لم تشرق الشمس بعد، أضأت الغرفة، الساعة تؤكد: الرابعة فجرا..

لكنها تقترب من الخامسة.

عيناي. لم تستوعب كم الضوء الذي اقتحمها، أنتبه لموضع قدميّ، ألمح ذلك الأثر مجددا أسفل ساقي... صحيح... ما الذي خلّف هذا الأثر؟

رحت أتفقد الثلاجة، تفاحتان حمراوتان ملقاتان بإهمال، قنينة ماء ربعها فارغ. تناولت تفاحة، لست مهتما كفاية بصلاحيتها للأكل.

غسلت وجهي مرارا.

تناولت القنينة، جرعت كميات مياه... حد فائض عن الاكتفاء.

أجلس على الأريكة. أنظر إلى النافذة المواجهة للبحر، المنظر مريح للغاية، الدقيقة تعادل ساعة في هذا المكان.

أعود الآن؟

أخذت كفايتي من الهدوء.

نعم... أعود الآن.

أجلس خلف المقود، أدير محركها، قدمي تضغط دواسة البنزين.

القدم في الساق نفسها ذات الأثر.

في طريق العودة. الهدوء. عقلي انسجم مع أجواء السيارة.. الهدوء.

الاستيعاب.. الشعور بالتجديد.

ساعتي: السابعة والنصف.

بداية شهر أغسطس، الشمس عجولة في مثل هذه الأيام. ترسل بأشعتها الحارقة باكرا.

أصادف آليات عسكرية عديدة في الطريق - ليست بالعادة - لا أعتقد أن هناك مناسبة ما، وليس هناك طارئ ما؟ كلما اقتربت نحو مدينة الكويت!

هناك أمر ما..

كيف لي أن أعرف؟

فتحت الراديو، أعبث بالموجات قليلا... لحظة.

أهذه آليات عسكرية كويتية؟

***

عندما دفع الكلب الكرة برأسه ناحيتي. ضحكنا.

نبح مرة.. ثم أتبعها باثنتين... واندفع نحوي.

ظننته يريد أن يلهو معي... حتى اقترب.

دون إدراك، أو فرصة للتصرف. انقض على ساقي... وعضها.

حذائي، عمل على حماية قدمي... لكن ساقي.

ومازال الأثر.

نقطة تفتيش

1

في قلب شارع ابن رشد بمنطقة حولي. ثلاثون مترا جنوب دوار الفارابي يقف حمزة تحت رحمة شمس أيلول الحارقة، مرتديا ثيابه العسكرية الخاكية التي لا تمت لجسده الضئيل أدنى انتماء. آثار حرقٍ تكسو الجانب الأيسر من وجهه. بيده رشاش يبدو إن كتفه الأيمن قد اعتاد وزنه كما اعتاد الوقوف لساعات لا تكاد تنتهي في نقطة التفتيش. على مقربة منه جنود ثلاثة، يعملون – كسواهم - على تأين المحافظة التاسعة عشرة لجمهورية العراق كما يزعمون، الكويت قبل أن تطأها أقدامهم في الثاني من أغسطس.

في نقطة التفتيش إياها، عن يمين حمزة يقف العقيد، ذو الشارب الكث، كان أكبرهم سنا وأطولهم قامة، تكسو بشرته سمرة حارقة، مرصعة ببثورٍ توزعت بسخاء في محيّاه، وعن شماله جنديان من عناصر الجيش الشعبي، حالهما كحاله.

قال العقيد لحمزة آمرا:

- أحضر لنا الماء.

- مـ... من أين؟

زجره العقيد بعد أن بصق على الأرض:

- من جهنم، تصرف!

2

قبل ثلاثة أشهر، التحق حمزة بالجيش ليؤدي خدمته العسكرية، لم ينسَ حين رأى انعكاسه على المرآة لأول مرة بالبزة العسكرية، أدرك بأنه لا ينتمي لهذا الزي.

3

حدث قبل ثلاثة سنوات، حين طرق باب منزلهم الواقع في البصرة، المطل على شارع 14 تموز، هرع حمزة ناحية الباب، كانت الطرقات على غير العادة، متبوعة بصراخ يستعجله بالفتح. كان شقيقه الأكبر بحال مزرية. هرب من العسكرية بعد أن قررت القيادة إرساله ضمن إحدى الكتائب التي ستلحق بالحرب العراقية - الإيرانية، علم أنها قد تكون رحلة اللاعودة.

ذهب حمزة ليأتي بوالده المقعد، دافعا إياه بكرسي خشبي ذي عجلات تمت إضافتها باجتهاد شخصي. ارتمى الشقيق الأكبر في حضن أبيه غير القادر على الكلام، لم تمنعه من وهب ابتسامةٍ مشعة لابنه البكر، ودمعة تصف الحال.

تناهى لمسامعهم صوت مركبة عسكرية، قام الشقيق الأكبر من فوره ليختبئ في أحد الخزانات، فتهمة الهرب خيانة عظمى، لا يطهر جسده منها إلا بمغادرته روحه.

حين دخل الجنود لم يستغرق الأمر منهم وقتا حتى وجدوا طريدتهم. أروه قتيلا على الفور، ثم مضوا في سبيلهم.

4

لا يعلم حمزة أين اختفت برادات المياه، يظن أنه رأى واحدة بالقرب. لمح صبيا أشقر قرب إحدى العمارات، ينظر إليه بذعر. تلقفه أمه لتصعد به فوقا، رامية حمزة بنظرات الوجل إياها. يتساءل حمزة وهو يتفحص ثيابه الشاحبة: أيصنع هذا الزي ممن يرتديه وحشًا؟

5

أثناء خدمته العسكرية، يأتيه شعور الغثيان كلما لمح ثوبا خاكيا، مستذكرا دماء أخيه وعويل والده يوم أرداه المجرمون قتيلا أمام مرآهم.

بعد أسابيع تم تحميلهم في قطيع من الحافلات التي اتجهت جنوبا، استعدادا للجبهة الجديدة، الكويت. شارك، مرغما، بهذا الجرم. لم يعد يستطيع استثناء نفسه من هذا الذنب. يتحين فرصة لا تكاد تأتي حتى لا يصبح جزءا من هذا العدوان.

في أحد أيام مناوبته في نقطة التفتيش، أوقف مركبة، طالبا من صاحبها إثباته، وليقوم، بمعية زملائه، بتفتيش المركبة. كان السائق مرتبكا، لعله لم ينتبه لوجود نقطة التفتيش هذه المنشأة حديثا، بجانبه امرأة ترتدي النقاب. طلب منه حمزة بطاقته الثبوتية. قرأها. راشد عبدالله، موظف، مواليد العام 1967، الرجل في عمر أخيه الراحل، بحث عن ملامح أخيه في صورة الرجل ولم يجدها. بيد أن المشاركة، ولو بسنة الميلاد، مدعاة للألفة.

طلب منه حمزة أن يفتح صندوق المركبة، ترجل راشد من السيارة بعد أن استعاد بطاقته من يد حمزة، ففتح الصندوق. أزاح حمزة قطعة قماش سوداء فصعق، نظر في عيني راشد. ثمة أسلحة مختبئة أسفل القماش، كانت عينا راشد تطلبان المستحيل من حمزة، نظر الأخير ناحية بقية الجنود المشغولين باحتساء الشاي. أقفل الصندوق طالبا من راشد ناكزا إياه بقفا سلاحه أن يعود لمركبته. قالت عينا راشد شكرا، وردت عينا حمزة: الله معكم.

6

أخيرا وجد حمزة براد المياه. يتخيل سباب العقيد، الذي اعتاده، جراء هذا التأخير. قام بملء القناني الفارغة وهو يتفحص الصمت من حوله، فرّت قطة ما إن التقت عيناه بعينيها قرب البراد. راح يتساءل عما كانت الحياة هنا قبل مجيئهم، قبل أن يدب الرعب في عيون الأطفال والأمهات والقطط.

تناهى لمسمعه صوت إطلاق نار من مكان نقطة التفتيش، رمى قناني المياه، وعاد بحذر ناحية نقطة التفتيش. بعد دقائق، وبعد انتهاء إطلاق النهار وصل، وجد أفرادا من المقاومة الكويتية تحاصر المكان، وقد أردوا العقيد قتيلا بعد أن قاومهم كما يبدو، وأمسكوا بالجنديين الآخرَين. هرع ناحيته عدد من الرجال الملثمين، بيد أن أحدهم صرخ فيهم:

- دعوه.

نظروا إليه مستغربين، اقترب صاحب الصوت من حمزة، أزال لثامه. كان الخلاص المنتظر: راشد عبدالله، موظف، مواليد العام 1967.

النكبة في الأسفل

أفقتُ على دوي انفجارٍ في الأعلى. تبعهُ صوت صافرات إنذار لم نعتد سماعها. الأيام متشابهة هنا في الملجأ، ليس ثمة ما يفصل الليل عن النهار سوى الساعة الكبيرة القريبة من المدخل، ودعوة كبير جماعتنا أبو إبراهيم لصلاة الجماعة.

***

سنوات مضت، وقد توقفنا عن عدها، مذ لاذت أجسادنا الحائرة لهذا الملجأ. سرداب بمساحة تقارب العشرين ألف متر مربع، واقعة أسفل أرض مدرسة تابعة لمنطقتنا. أضحى هذا العمق مآلنا بعد البيان رقم 01 الذي تلا النكبة، ثم جاءت التعليمات من قبل عناصر حفظ الأمن بثيابهم الخاكية، بعد أن اقتحموا البيوت لينتشلونا من عنق الكارثة:

- أخلوا البيوت. الآن. لا تأخذوا معكم أي شيء.

استفهم البعض:

- ماذا عن أشيائنا الثمينة؟

جاءت الإجابة بصورة آلية، وكأنها قيلت لمرات كثر:

- أرواحكم أثمن.

أذكر الدرج الطويل المؤدي للسرداب، درجات تتتابع وكأنها لا تنتهي.

كان الملجأ فسيحا، إلا من أعمدة تبعد عن بعضها نحو أربعة أمتار في الاتجاهات الأربعة. الأرضية والحوائط رمادية. إضاءات النيون ملأت السقف لتعطي وهجا مزعجا. لم تعتد عليها أعيننا إلا بعد مضي أسابيع.

في الأيام الأولى التقيتُ عدنان. كان طفلا يقاربني سنا. أوكلت لنا مهمة توزيع المؤن التي تأتينا من عناصر حفظ الأمن على جماعتنا وجماعته.

مضينا بضعة شهور معا، نزاول تلك المهمة التي جعلتني وعدنان نشعر بأننا ننقذ العالم.

في أحد الأيام قل منسوب الأكسجين في الملجأ. قاموا بتوزيع أسطوانات الأكسجين، تلك التي ملأت ردهات الملجأ، وقد انبثق عن كل منها بضع كمامات تكفي أسرة أو أكثر. لكل منا نصف ساعة خلال اليوم.

في أحد الأيام، قلت حصيلة أسطوانتنا، رميت الكمام ورحت أسعل دونما توقف، لم أشعر إلا بيد عدنان تسوقني لأسطوانته. دبت فيَّ الحياة من جديد.

السؤالان اللذان يراودان رأسينا الصغيران هما ذاتهما. ما الذي حدث؟ ومتى نعود كما كنا؟

بيان رقم 02

«أيها اللاجئون الأحباب. تمر البلاد في نكبة قد يطول بقاؤها، وكلنا ثقة بالمسؤولية التي يتحلى بها كل فرد على هذه الأرض المباركة. يرجى الالتزام بأماكن كل جماعة، درءا لأي احتدامٍ قد يقع بينكم، سلامتكم شغلنا الشاغل حتى نتجاوز هذا المصاب، ... ، وسنلتقي بمشيئة الرب قريبا تحت سمائنا الزرقاء».

لم أفهم وقتها مرادف كلمة نكبة. كل ما أذكره، لحظة اقتحام عناصر حفظ الأمن منزلنا، ذاك الدخان المنتن الذي حجب لون السماء. دويٌّ صافرات الإنذار في الشوارع والمحطات التلفزيونية والإذاعية لا ينفك يزعق. حتى انقطع الإرسال تماما مع توقف الكهرباء. صراخ الجندي الذي دخل بيتنا عنوة على حين غرّة أعاد الضوضاء بعد أن خبتْ. غادرنا سراعا نحو الملجأ.

عقب بيانهم الثاني افترقت عن عدنان. تلاه بيان بفصل مكاني بين الجماعات في كافة الملاجئ، ففصل بين جماعتهم وجماعتنا جدار من الطوب الأحمر. نسمع خطاهم ولا نراهم. قال أبو إبراهيم مطمئنا جماعتنا:

- هذا أفضل، لتبتعد مشاكلهم معهم.

منذها، ورغم اختلاف الجماعتين، إلا أنهم اتفقوا على العزلة.

مرت سنوات وأصبحت وجوههم تتلاشى في ذاكرتنا. بعد عقدٍ من الزمن، لم أعد أشبهني، وكذلك الأمر بالنسبة إلى عدنان. ظل صغيرا في ذاكرتي، لم يكبر.

توقفت البيانات بعد البيان رقم 27 الذي نص على تصفية كل شخص يتمرد على جماعته، أو يخترق الجدار الذي يفصله عن الجماعة الأخرى.

صارت عناصر حفظ الأمن لا يتحدثون إطلاقا، كما الآلات يطوفون بيننا كأشباح لا أجساد.

***

عقب دوي انفجار بدا أنه قادمٌ من الأعلى، رأيت ظلا يتجه نحو مخرج الملجأ. حين نظر إليَّ أشار إلى الأعلى. كانت دعوة.

انطلقت صافرة إنذار ملجأنا دلالة على وجود اختراق أمني. هرب أحدهم. هرع الأشباح نحو البوابة.

علمنا هوية الهارب بعد سماع عويل والدة عدنان.

كانت تعليمات أبو إبراهيم حازمة:

- لا دخل لنا بهم.

بعد أيام تحينت الفرصة. ألبي دعوة الظل، الصديق القديم، وأن أزيح الستار عما هو أبعد من حدود ملجأنا. سمعت صوت الإنذار مجددا بعد هروبي من البوابة. كانت الدنيا مختلفة عما أذكر. مركبات خالية تابعة لعناصر الأمن سدت الشوارع. ركضت بسرعة واختبأت خلف أحدها. سمعت دبيب أقدام العناصر تنتشر بحثا عني. لم يكن الهواء ملوثا.

لم أعلم أين أبحث بالضبط. بعد أن خلا الشارع ممن يبحثون عني، عبرت بضعة شوارع. قررت التوجه إلى شارعنا. لحظة دخولي فوجئت بأناس لا أعرفهم، ولا أظنهم منا، يسكنون بيوتنا. كان بيتنا مختلفا. زينت حديقته الخارجية بورود تبدو وكأنها زُرعت منذ وقت قريب. بيدٍ مترددة ضغطت زر الجرس. رد عليّ صوت من السماعة بلهجة غريبة. انعقد لساني. رأيت وجها يزيح الستار من النافذة الأمامية. بعد لحظات فُتِحَ الباب وخرج رجل بيده سلاح. شعرت بيدين خلفي تنتشلاني من مكاني وتكتمان أنفاسي قبل أن يقترب الرجل ذو السلاح مني. كان عدنان الذي حثني على الهرب معه، قال لي بينما كنا نجري:

- إنهم غاصبون.

أخبرني بعد أن اختبأنا وراء حاوية قمامة ضخمة: منذ النكبة وهؤلاء المحتلون استحلوا بيوتنا، وما الملاجئ إلا كذبة ابتدعوها ليخلوا المكان لهم. وما عناصر حفظ الأمن إلا رجالهم.

لم نكن أنا وعدنان وحدنا الذين نعلم الحقيقة. أرشدني لمخبأ الجماعة الذين التقى بهم. كانوا من ملاجئ شتى لا تختلف عن ملجئنا. سألتهم:

- وما العمل الآن؟

- نستعيد حياتنا التي سلبوها منا.

- وجماعتنا؟

- أي جماعة تقصد؟ لم نعد جماعة، بياناتهم فرقتنا أفرادا.

- نعود لنخبرهم بالحقيـ..

- لا نستطيع العودة، رجالهم يطوقون الملاجئ.

مضت أشهر وصرنا أكثر. زاد الهاربون من الملاجئ ليضموا إلينا. فقد عدنان ساقه اليمنى فصرت عكازه. مات ثلاثة في عملية نفذناها فانضم لنا آخرون.

هرب عدد كبير ممن استباحوا بيوتنا. استعدنا شارعنا، عادت منطقتنا وتبعتها مناطق أخر.

عدت وعدنان لملجئنا حاملين البشرى. لم يكن ثمة أشباح عند المدخل. حين هبطنا السلم الطويل حتى وصلنا أسفل من الساعة الكبيرة، فوجئنا بزوال الجدار الفاصل. انقضت الجماعتان علينا، جماعة عدنان انتزعوه من يدي، لم يعلموا أني أسنده، ولم يبالوا بساقه المبتورة فارتطم رأسه بالأرض، وجماعتي أخذوني فوق الأكتاف.

كانوا مشغولين بالاقتتال، صرخنا فيهم، أخبرناهم بالحقيقة، إلا أن ثمة ما يصم آذانهم. أسمع صوت أبو إبراهيم ينادي في جماعتنا:

- هذا يومكم يا أحرار، طهروا الملجأ منهم.

والناس تطيع دونما تردد.

ابتعد عدنان مع الفوضى حتى اختفى تماما، ومع انتهاء الغمة فوقا، كانت النكبة في الأسفل أعظم. لم ينتصر أحد.

لأنه حرّك عينيه فحسب

حدث ذلك في بدايات القرن الماضي؛ رجلان يجلسان في الصحراء بقرب تلّة. لا ألوان هناك بعد. الوقت قُبيل الفجر، قبل أن تكتسب الأشياء أشكالها وحوافها. الهواء النديّ متضوّع برائحة فحمٍ طافئٍ مختلطٍ بالتراب. مُطلق نائم، ملتحفٌ ببشته ولا يمكن رؤية شيء منه عدا لمعة على عظمة أنفه الأعقف، شعيرات لحيته البيضاء المتنافرة، وفمه المفتوح. أما مبارك فقد كان رابضا في مكانه، متكئا على حزمته، لا ينام الليل كعادته، منذ ذاك الحلم الملعون، الذي مات فيه واضطّر لأن يقف في عزائه، لأنه لا أحد هناك في المجلس ليأخذ عزاءه.

كان الهواء الذي يلفهما رطبا، باردا، ولا أحد يعرف في أي يوم أو أي شهر وقعت تلك الحادثة بالضبط، غير أنها كانت في بداية فصل الشتاء، أيام جويريد، في مكانٍ ما من شمال الكويت. لم ينظر مبارك إلا أمامه، وكأنه يحاول أن يرى الغبش، وأن يكشف تلك اللحظة الرشيقة التي يتشكّل بها خط المدى، ثم يبدأ العالم من حوله بالتحول للونين فقط: الأزرق والأصفر.

(صورة 6)

راح يفكّر بتفسير الحُلم: ما معنى ألا يأخذ أحدٌ عزاءه؟ هل سيموت بلا ذريّة؟ ولكن منيرة حبلى الآن بالأول، وستضع هذا الشهر بإذن الله. كما إنها ستضع له ثانيا وثالثا ورابعا كذلك. لم هذا القلق إذا؟ شعر مبارك بحكّة في ذراعه، ثم تمطى وتثاءب، وبينما كان يفعل ذلك، حرّك عينيه ناحية مطلق، ليس لأنه أراد رؤيته - فقد شبع من مراقبة النائمين مؤخرا، وخصوصا رفيق عمره مطلق - ولكنه رآه في تلك اللحظة بالذات، لأنه حرّك عينيه فحسب، وإذ به يلمحُ أفعى تجرّ نفسها بالقرب من رأس مطلق، فما كان منه إلا أن صرخ جزعا وتلقّف أقرب حجرٍ منه ولفع رأسها فانبعج تحت قوة الرّمية.

هبَّ مطلق من نومه فزعا بوجهٍ لم يتمكن مبارك من ملاحظة شكله، ولكن خمّن أنه لو كان للخوف وجه، فعليه أن يكون وجه مطلق الذي ولأول مرة، منذ سنواتٍ ربما، يستيقظ في العراء على صرخة. ما إن علم مطلق بالذي وقع حتى تمتم: واللعنة! ثم داس الأفعى بنعله ولعن إبليس، رغم أن الأفعى قد قضت

نحبها منذ مدّة. كبح مطلق لسانه عن الشّتم، وراح ينظر من حوله كأنه يريد التأكد من أنه مازال حيا، ويعطي كل شيء نظرة أخرى، نظرة تشبه الامتنان والتقدير. عاد ببصره إلى مبارك الذي انكفأ على ما كان يشغله قبل أن يحدث هذا كله. عدّل مطلق بشته بطريقة أعطته وقارا لا يشبه وجهه النائم وهو فاغر الفم، وقال بعظَمةٍ مصطنعة إنه ممتن له، وأنه سيفعل أي شيء يأمر به لأنه أنقذ حياته. شاهت عينا مبارك عميقا في عينيه لثوانٍ عدة، أشاح ثم قال: عساك تسعد يا بو خلفان، عمرك بعمري أفداه. فأصرّ مطلق على أن يطلب شيئا، وإلا لن يخاويه مرة أخرى. فما كان من مبارك إلا أن شاركه هاجسه: أتوجّس الموت وأنا أخوك. إن جابت منيرة بنت، زوّجها خلفان، هذي وصية مني لك. خايف أروح والبنت تقعد. نفس عماتها. ما عندي غيرها يا بو خلفان. تعوّذَ مطلق من إبليس وقال: تم. ثم قال بأنه سيذبح خروفا حتما عندما يعودان.

ولم يكن مبارك مخطئا. لقد خرّ ميتا فعلا قبل أن يرجعا. قالوا أسبابا عدة في موته، واتفقوا بأنه لم ينم منذ أيام طويلة، وعليه الآن أن يعوض كل تلك الليالي بليلة واحدة طويلة لا تنتهي. أما مطلق فقد أصرّ: هذا يومه، لقد رآه.

بعدها بشهرين أنجبت زوجته منيرة بنتا أسموها شاهة. كان إبلاغ خبر ولادتها مصاحبا لإعلان مطلق عن زواجها من ابنه خلفان الذي يبلغ من العمر ثلاث سنوات. إنها وصيّة الغالي مبارك، منقذه من الموت. ومن ثم صارت وصيّة مطلق ذاتها لابنه قبل أن يفارق الحياة. طفلٌ صغير، بدشداشة مشمرة، ويدٍ غارقة بلعاب الفم، قالوا له: أنت زوج شاهة. فابتسم، ظنا منه أن شاهة حلاوةٌ ما.

كبرَ خلفان على هذه الفكرة، وكان يعتبر نفسه الأكثر حظا على البسيطة. لم تكن شاهة صبيّة عادية. إنها تُسقط الطير من السماء على حد قوله، رغم أن بقية الصبية من العائلة لا يتفقون معه، ويقولون إنها قبيحة، أو عادية، ما عليها زود، فيؤدي ذلك لعراكٍ عاتٍ بينهم. ولم يكن ذلك لأنهم لم يتفقوا في الرأي معه، أكثر من أنهم قد كونوا رأيا في الأساس بامرأته، بشيءٍ صار يمسّ شرفه. أما شاهة فلم تبتسم له مرة، وربما كان هذا ما يعجبه فيها. كان يقول إنها

رزينة وبنت أصول، مع إني زوجها، حلالها. كان يلازم أمه في العزائم، في الأعراس، في كل مناسبة. ما إن تهمّ أم خلفان بالخروج، حتى تجد الولد وقد تشبّث بطرف عباءتها ليتبعها. كل ما كان يفعله في تلك المناسبات هو التوجّه لمكان شاهة، تلك الفتاة التي تخصّه، التي أوصاه أبوه عليها، لعبته الجديدة التي سيحصل عليها ما إن يكبر. في العزائم، كان أول ما يفعله في حوش المستضيفين قبل أن يدخل هو التفتيش عن نعليها بين عشرات النِّعل والأحذية المرمية أمام باب الصالة؛ فخلفان يعرفُ جيدا ما الذي يبحث عنه، نعلين صغيرتين لونهما وردي ومرسومٌ عليهما فراشةٌ صفراء. فإن وجدهما أخرج يده من فمه ودخل مبتسما، كاشفا عن صفّ أسنانه الصغيرة المتكسّرة. وإن لم يجدهما، ذاك يعني أنه سيربض بجانب أمه طوال العزيمة، يجرّ طرف ثوبها ويقول: هيا، لنرجع. أما في الأعراس فكل ما كان يفعله هو التوجه لمكان لعب الفتيات، والبحث عن تلك الفتاة التي تلبس الفستان البرتقالي. هو الفستان ذاته في كل الأعراس. لقد بات يعرف كل شيء يخصّ شاهة، لأنها أشياء بطبيعة الحال، تخصّه هو كذلك.

وقد تزوّجها خلفان في رأسه منذ أن عرف معنى الزواج. ونضج وهو يجامعها كل ليلة في خياله، يلمس نفسه في كل مرة ويتذكّر حوضها المكتنز وهي تركض، ثدييها اللذين يكبران مع الوقت، وجهها الأسيل وشفاهها المتدليّة. لقد تزوجها وربما أنجب منها اثنين أو ثلاثة، وقد أطلق عليهم أسماء كذلك؛ هذا أحمد وهذي مشاعل وهذا حمود، حتى أصبح لديه قبيلة بأكملها في رأسه، وبدأ يتدخل في أقدار أبنائه ولمن يزوج من، كل هذا ولم يبلغ خلفان بعدُ سنّ العشرين، السن المنتظر كي يدخل على امرأته.

وعندما حانت الساعة أخيرا، جاهرت شاهة بكلمتها: لا.

أخفضَ فلاح رأسه وهو يتمتمُ بالخبر. جاش خلفان في الديوانية: شنو! بدأ الرجال يتهامسون، وارتبك فلاح. هاجَ خلفان: أنت ابن عمها، رجّال البيت، كيف يعني لا؟ تردّدَ فلاح: ستَعدل عن رأيها... أعدُك. ثار خلفان: تَعدل؟ منذ متى ونحن ننتظر رأي النساء؟ توجسَ فلاح بصوتٍ منخفض: ذاك أول يا خوي... اصبر

عليها بس. قام خلفان واقفا وقد كسا العرق حاجبيه: الله يرحمك يا مبارك، آخر رجال هالبيت. وهمّ خارجا من المجلس.

لن ينسى أبدا فلاح تلك الإهانة، التي كان يستحقها بنظر كل من كان موجودا يومها، وكل من سمع بالقصة من بعدها. شاهة متزوجة من خلفان قبل أن تولد حتى، كيف ينتهي الموضوع الآن؟ قال له واحدٌ من جماعتهم يدعى سيف: أيُخصى الرجل إن درس بمدرسة؟ وشنّت قطيعة بينهما منذ ذلك الحين، حتى أن سيف قال لاحقا: كلمتي أستحق القتل عليها، وها هو فلاح لا يفعل شيئا إلا أن يقاطعني. أخبرتكم، المدرسة تُخنّث الرجال!

فعل فلاح كل ما في وسعه. كلّم النساء؛ عمته أي أمها، وأمه، وعماتها، وأخواته، بناتهن، الجيران، كلّم جميع من قد تسمع منه شاهة. قالوا: تتزوجينه. قالت: لا. قالوا: بل تتزوجينه. قالت: على جثتي. قالوا: استغفري ربك. قالت: لما تستغفرونه. قالوا: أبوك. قالت: أنا.

ثارَ خلفان. مكث في بيته يتفكّر. أخذ يذرع الديوانية جيئة وذهابا. شعر بحرارةٍ في رأسه. وراح يتساءل: كيف يحدث كل هذا؟ من المسؤول؟ أتكون عاشقة لأحدهم؟ وقف ينظر لصورة والده المعلقة على الحائط. أبيض وأسود. عينان غائرتان. فاه مفتوحٌ قليلا. أنفٌ معقوف. شعيرات لحية بيضاء متنافرة. بدا وجه والده هذه المرة مقرّعا إياه. كيف لا تعمل بالوصيّة؟ امرأة تكسر كلمة أبيك؟ أفا يا خلفان! أفا وأنا أبوك!

طلبَ مقابلتها. خرج من منزله وكانت الشمس على حافّة الغروب، وتوجه لبيت عمّه وخبط على الباب، قال: نادوها. ودخل الحوش. تعالت الأصوات من داخل المنزل. صرخ النساء: سيقتلها! ورغم كل ذلك، استطاعت شاهة أن تتملّص منهم وخرجت إلى الحوش. كان خلفان هناك، يمسح الحوش جيئة وذهابا. لم يعد بالإمكان مشاهدة الشمس الآن. لفحه هواءٌ بارد، تشبه النسمة التي لفحت مبارك، أبا شاهة، قبل سبعة عشر عاما. جاءه صوتها: خير؟ رفع رأسه وإذ بشاهة تقف هناك. كانت منتصبة شعثاء الشعر، حافية القدمين، الشيلة منسدلة على أكتافها،

وثوبها المنزلي الأصفر يكشف القليل من صدرها القمحيّ المكتنز. أما النساء، أمها وعماتها وبناتهن، فقد تجمّعنَ يتنصّتن من وراء باب الصالة.

قال: تمشين معي البيت. قالت: مو ثعبان يزوجني. قال: أبوك من زوجك. قالت: نحن عالقون في هذا الزفت بسببك. تنازل عن عنادك. قال: كلمة أبي. قالت: الله يرحمه. قال: كلمة أبيك. قالت: الله يرحمه. قال: أنت لا ترحمينهما. قالت: هما ما رحماني. قال: تعشقين يا شاهة؟ قالت: لا. قال: اقسمي. قالت: براس أبوي وأبوك. قال: أنتِ امرأتي. قالت: محرّم علي. قال: أبغضك، وأنتِ امرأتي. قالت: ألف حرام عليّ. قال: محرمٌ عليك الرجال كلهم إذا. وطفق مدبرا من منزل عمه، وارتفع في الفضاء صدح أذان المغرب، ما أعاقه عن سماع آخر كلماتها التي صرخت بها. ماذا قالت؟ لا يهم. أقسمَ وهو يمشي ألا تتزوج إلا إياه. بهذا الأذان! وهكذا أباد خلفان كل احتمال بزواج شاهة من غيره، ولينقطع نسل مبارك إن لم يجئ من ظهره.

ما إن تفشى خبر رفض شاهة لخلفان بين الناس، حتى توافد الخطّاب عليها. وكل ما كانوا يسمعونه من ابن عمّها فلاح: اخطبوها من خلفان، هي له. وكان يقوم بعدها من المجلس. مرّة، عندما خطبها ابن المسيوي، وكرّر عليه فلاح الجواب ذاته، علّق ابن خالته جويمعة قائلا بصوتٍ منخفض: قطعوا رزق البنت، زوجوها وخلصونا! فأصدر بعض الرجالُ همسات تومئ بالموافقة، فقال فلاح، الجالس في صدر الديوانية، بصوتٍ أجش: والله ليذبحها خلفان، ويذبحنا كلنا معها. وكان على حق، إذ توعّد خلفان بقتلها هي ومن سيتزوجها في حال وقع الأمر. كيف يتزوّج أحدهم زوجته؟ وأبناؤهم؟ أحمد ومشاعل وحمود؟ إنهم ينتظرون، يقرعون رأسه كل ليلة، وعليه أن يتصرّف.

باتت القضيّة تخصّ عائلة بأكملها الآن، لا خلفان وشاهة فقط. تضرّعوا، توسّلوا، وحلّفوها. قالت: لا. وهذه المرة أجبروها، التمّوا عليها، ضربوها. قالوا: لا خيار، أنتِ ذاهبةٌ إلى بيته. قالت: هذا بيتي. قالوا: ليس بعد الآن. قالت: سأقتل نفسي، وسأقول لأبي كل شيء. ظنوا أنها تمزح. في اليوم نفسه، رمت بنفسها من أعلى سطح

المنـزل، ولكنهـا لم تمـت، بـل أصيبـت بكـسرٍ في قدمهـا اليمنـى وكتفهـا الأيمـن. لعنـت حظّهـا وهـي تـصرخ، وراحـت النسـاءُ يهيلونهـا بالـضرب رغـم كسـورها، مـا سـبب لاحقـا عرجًـا دائمًـا.

توالـت الأيـام، وظلّـت شـاهة حبيسـة البيـت، ممنوعـة مـن الخـروج، تقـضي سـاعات في حجرتهـا لا تفعـل شـيئا. لهـا حجـرة في خلفيـة المنـزل بـلا نافـذة، تليـقُ كـما يؤمنـون بامـرأةٍ عاصيـة، قليلـة حيـاء، غـير جميلـة حتـى، ومـع كل هـذا عرجـاء. كانـت غرفتهـا تحتـوي عـلى خزانـةٍ صغـيرة، فـراشٍ عـلى الأرض، وبجانبـه صنـدوق مـن الخشـب لونـه أخـضر، تحتفـظ فيـه بحاجاتهـا الأكـثر حميميـة مـن أيامهـا الماضيـة؛ ثـوب طفولتهـا البرتقـالي، نعلـين صغيرتـين لونهـما وردي ومرسـومٌ عليهـما فراشـة صفـراء، وأشـياء أخـرى تـسرّ لهـا في الأوقـات العصيبـة بـأن ثمـة مـا يسـتحق المقاتلـة مـن أجلـه. أمـا خلفـان فقـام بمـا يجـب ليكـسر شـاهة، وتـزوّج مـن ابنـة خالـه نويّـر، أنجـب منهـا فتـاة سـماها نـوف، وماتتـا كلتاهـما في حـادث سـيارة بعـد سـنتين. بعدهـا بأسـبوع، سـافرَ مـع ابـن خالتـه إلى مـصر، وعـاد بزوجـةٍ مـن هنـاك، اسـمها ليـلى. اسـتغرب النـاس مـن سرعـة فعلتـه، إذ إنـه لم يحـترم المتوفـاة وابنتـه. أنجـب مـن ليـلى ولـدا ثـمّ طلقهـا. صـار اسـمه أبـو محمـد الآن. ومـرة أخـرى، بعدمـا توالـت الأيـام، بـل السـنين، ونـسى النـاس قصتهما. تـزوّج خلفـان مـرة ثالثـة مـن امـرأة تدعـى سـويرة، تقـرب لـه مـن بعيـد، أنجبـت لـه أربعـة أولاد وبنتـين.

أمـا شـاهة فقـد فُـكّ الحصـار عنهـا، صـار عمرهـا يناهـز الأربعـين الآن. سـمنت إثـر قلـة حركتهـا وعرجهـا، وراحـت تخـرج مـن البيـت مجـدّدا، تـزور عماتهـا وبناتهـن، صديقـات طفولتهـا وبناتهـن، وتـتردّد أحيانـا عـلى الجمعيـة لتزجيـة الوقـت. التحقـت فيـما بعـد بالمدرسـة في عمـر الخامسـة والأربعـين ضمـن مـشروع محـو الأميّـة. درسـت، تعلّمـت كيـف تكتـب وتقـرأ. كانـت تسـأل بعـض البنـات الصغـيرات مـن العائلـة لـكي يفشـوا لهـا مـا قـد يجـيء في الاختبـارات، وأحيانـا تتحدّاهـن في تهجئـة الكلـمات وحـل المسـائل الرياضيـة. وأول مـا فعلتـه مـا إن أتقنـت القـراءة، كان تـلاوة القـرآن الكريـم، أرادت أن تفهمـه، لا أن تـردّده فقـط. ولكنهـا مـع ذلـك، فشـلت في فهمـه، ولم يعـن لهـا

ذلك الكثير. لم تعد بحاجة إلى دعامة تقوم عليها. أرادت أن تقرأ أكثر، أن تعمل. لم يعجبها ما حالت إليه قريباتها. تزوجن جميعهن من رجالٍ لا يعرفنهم، ومازلن لا يعرفنهم، حتى بعد قضاء عشرات السنين برفقتهم، وإنجابهن لأبناءٍ عدّة. عملت لاحقا في إحدى المدارس الحكومية بائعة في المقصف، ومديرة للفرّاشات، وأحيانا منظمة للنشاطات الصباحية. هذا ما كان توفّره لها شهادة المرحلة المتوسطة على كل حال. توقفت عن العمل بعد اثني عشر عاما عندما بدأت ركبتاها بالتخشّن، وعرجها يسوء، ولزمت البيت من جديد، وتفاقم وزنها أكثر من قبل، وراحت تعلّم صغار العائلة بعض الدروس، وتسترجع كل ما تعلمته برفقتهم، تسمع منهم، تفهمهم، تناقشهم، تكبر معهم من جديد، تعيش حياة أخرى في زمنٍ مختلف كان من المفروض أن يكون زمانها. كانت شاهة تحرّر قدرها بالهرب لطفولتها، وتعيد بشكلٍ ما تصحيح كل أخطاء الواقع.

كان عمر خلفان يناهز الثمانين عاما عندما أدخلوه غرفة الإنعاش في مستشفى العدان. كان له وجه أبيه، عينان غائرتان، أنفٌ معقوف، لحية بيضاء متناثرة، فاغرا فمهُ قليلا. كان يهذي وهو محاطٌ بأولاده السبع، وزوجته سويرة، والكثير من الأقرباء. كل ما كان يقوله خلفان ساعتها: احرصوا أن تتزوّج شاهة. احرصوا أن تتزوّج شاهة.

ربما لم يدرك وقتها أن شاهة كانت بين هؤلاء الذين يلتحفون بسريره. لقد طلبت المجيء من زوجة ابن عمها فلاح، الذي مات قبل بضع سنوات. قالت لها: أبي أشوفه. وها هي تقف الآن بين الجموع، ربما لم يعرفها خلفان بجسدها المكتنز تحت العباءة، ووراء البرقع، بسنواتها السبع والسبعين. متى رآها آخر مرة؟ في الحوش، بثوبها الأصفر المنزلي، شعرها الأشعث، شيلتها المسدولة على كتفيها، وبروز القليل من صدرها القمحيّ. مرّت أكثر من ستين سنة من رؤيته لشاهة، ولا يبدو أنه غادر ذلك الحوش حتى الآن، ولم يرفع المؤذن أذان المغرب بعد. وبينما كان يردّد تلك الوصية أمام الأحبّة، نادى بأسماء استنكرها الجميع: أحمد، مشاعل، حمود، لكن لم يملك أيُّ منهم فكرة عن هؤلاء، إلا شاهة، التي شاهت

بعينيها، وكأنها تعرف هذه الأسماء جيدا، بعد رؤيةٍ ما زاولتها، وتعرفت على كل ما كان يمكن أن يكون. شعر خلفان بلفحة نسيمٍ بارد، تشبه بداية الشتاء، وقت جويريد، ثم مال برقبته ونظر إلى الزاوية التي كانت تقف فيها شاهة، ليس لأنه تعرّف عليها، بل لأنه حرّك عينيه فحسب، ثم ماتَ بهدوء، من دون أن يغلق عينيه عنها.

أكثر ما تعجّب له الناس كان حضور شاهة لتأخذ عزاءه، وكان الناس يقدّمون لها التعازي أكثر من زوجته سويرة. عاشت بعد ذلك سنواتها الأخيرة في حجرتها، كما عاشت طوال عمرها، مع الخزانة ذاتها، الفراش ذاته، والصندوق الخشبيّ الأخضر ذاته – لقد بهت لونه الآن وتقشّر - والذي يحمل بداخله حياتها بأكملها. كانت تفكّر في أيامها الأخيرة بخلفان، وشعرت، بشكلٍ ما، بأنها أضحت أرملة، من دون أن تكون يوما زوجة.

ماتت شاهة عن عمرٍ يناهز الرابعة والثمانين، ولم يكن ثمة أحد من ذريتها ليأخذ عزاءها.

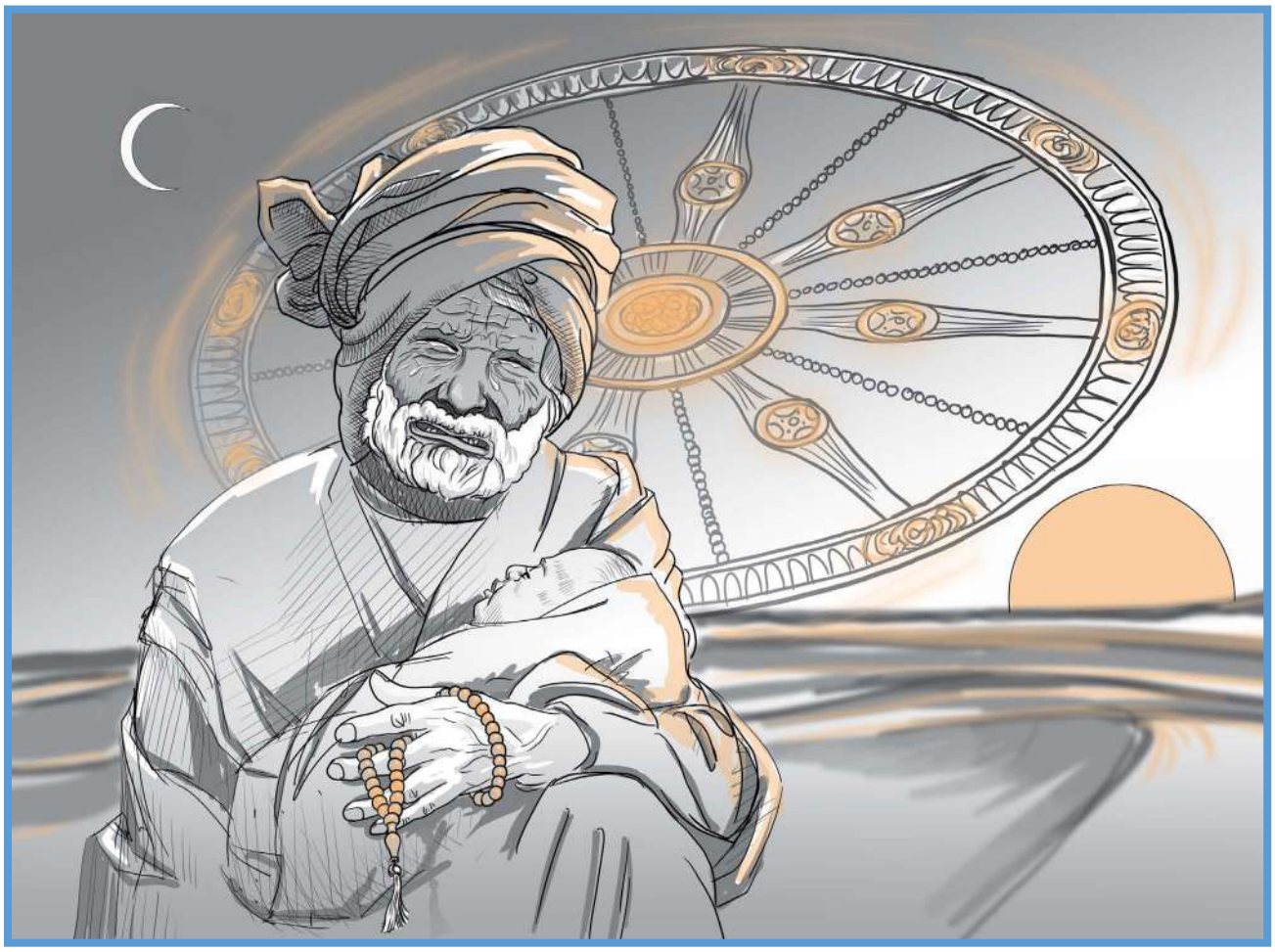

حكاية هزاع الذي أنجب والده

كان هناك رجلٌ يدعى هزاع، ولا أحد يدعوه هزاعا، بل بوسعود، على رغم أنه لا ولد له يدعى سعود، ولكنه اسم والده الشهيد فقط. بدأ الأمر كمزحة، واعترف مرة بأنهم كلما نادوه بـ «بوسعود»، كان دماغه يلجأ لتصوير شكل والده بالصورة المعلّقة في صالة المنزل؛ بالأبيض والأسود، أنفٌ طويل، عينان جاحظتان، أذنان طويلتان، شامة على الخد الأيمن، وشفاه مزمومة. كان ذلك الوجه نقطة الارتكاز لذلك الاسم. حتى إن فكرة الابن ذاتها كانت مجرّدة، إذ إنه لم يتزوج بعد، ولم يفكر في خوض الأمر جديا. وهكذا، كان يرتعب أحيانا من فكرة أنه أبو أبيه، فشكّل له الأمر شرخا على سطح المنطق.

عندما تزوّج، كان موضوع اختيار اسم أول ولدٍ له خارجا عن سيطرته. وعموما، أراد أن يأتي سعود هذا لينتهي العبث، وينسى فكرة أن اسم سعود لا يشير إلا لوالده فقط. خطبت له أمه بنت عمته منيفة، والتي أصبحت حبلى بعد شهرين فقط من زواجهما. عندما أخبرهم دكتور السونار بأنها حامل بولد، نهض هزاع وقبّل رأس منيفة مهلّلا بتأتأة السعداء: سعود قادم أخيرا! واستطاعت منيفة المستلقية على السرير أن تلمح ابتسامة هزاع وهي تختفي تدريجيا وتُستبدل بأمارات الرعب. مازالت تذكر بالذات حبة العرق اللامعة التي تكوّنت سريعا على صدغه القمحيّ، بيد أنها لم تُسند الأمر إلى أي معنى. مرّ الصيف الطويل، ولم يذكر هزاع شيئا عن الولد. كان يقول الولد ويكتفي بذلك. ولم تلاحظ منيفة أنه كان يتجنّب ذكر الاسم، ولكنها لاحظت أنه أزال صورة والده من حائط الصالة متعذرا بأنه سيغير إطار الصورة، وظلّ ذلك الحائط فارغا. كما أنها عاينت نظراته الاختلاسية الطويلة إلى بطنها المكتنز وهما يجلسان على الكنبة أمام التلفاز، وهروبه من الحجرة كلما خلعت ملابسها.

في واحدة من غرف جناح الولادة في مستشفى الهادي، جاء النبأُ أخيرا. كانت غرفة الاستقبال تعجُّ بالزوار. أول ما لفظته أم هزاع عند رؤية الطفل: ما شاء الله، له أذنا وأنف أبيك، الله يرحمه. ارتعدَ هزاع عندما تناهت هذه العبارة إلى مسامعه. هل أنجب أباه فعلا؟ أعطته أمه الطفل ملفوفا بمهاده. كان نائما

بوجهٍ أحمر، طريّ، تعلوه خصلات مبللة ملتصقة برأسه. راح يتفرّس في الوجه الصغير الذي تكاد أن تخرج ملامحه الكبيرة عن حدوده؛ لقد توفي والده قبل ثلاثة وعشرين عاما، ولا يستطيع أن يسترجع سيماءه تماما إلا من الصور الضبابية في ألبوم العائلة، وتلك الصورة المعتّقة التي أزالها من الصالة، ولذا وثق برأي أمه بخصوص الشبه، خصوصا حين ساندت هذا الرأي عمته أم منيفة.

عندما شردَ من غرفة الاستقبال إلى ممر المستشفى، لمح زُمرةَ رجالٍ يجلسون على كراسي الانتظار، يبحلقون به. إنهم آباءٌ حظوا من فورهم بأبناءٍ جدد على ما يبدو. وعلى رغم أنهم لم يكونوا جالسين بعضهم بجانب بعض، ولا يبدو للناظر أنهم يعرف بعضهم بعضا بأيّ شكلٍ من الأشكال، فإنه توجّس من نظراتهم المتواطئة، وخشي أن يكون قد تورّط معهم في جرمٍ ما، وأنه الآن عضوٌ في أخويّةِ الرجال الذين ينجبون آباءهم، ويعيدون مرة أخرى عجلة التاريخ، وواجبٌ عليهم أن يحفظوا فيما بينهم هذا السرّ.

هرعَ مبتعدا قبل أن يكلّمه أيٌّ منهم. أراد أن يتوارى عن الجميع، ويفكّر وحده. نزل درجات السلالم رُباعا كما كان ينزل في رأسه كذلك، يُفكّر. لقد عاد أبوه إلى الحياة إذا، وكأن الأحفاد هم وسيلة الآباء الخبيثة لكي يعودوا مجدّدا، ويراقبوا ما يفعله أبناؤهم خلسة.

توفي سعود عندما كان هزاع في السابعة من عمره إبان الغزو العراقي، ولم يحتفظ رأسه الصغير بأي ذكرى عنه. لطالما كانت فكرة غريبة أن يكون له أب؛ هذا الشكل الحميمي من أشكال السلطة. هل سيكون والده راضيا عنه إن رآه في هذه الحالة؟ لقد كان سعود شهيدا في الحرب، بطلا، وظلّ شبح البطولة هذا يلاحق هزاع طوال عمره، حتى إنه فقد اسمه وأصبح تلقائيا: بوسعود. لم يكن أخوه منصور أبا سعود كذلك، بل ظلّ منصور، رغم أنه ابنه كذلك، ولكن وحده هزاع من حمل هذا الإزر على ظهره، كونه الأكبر بينهما. لقد أضحى وجوده بأكمله دلالة على آخر، أثر لوجود شخصٍ رحل. أن تكون ابن البطل يعني أن معايير نجاحك تختلف تماما. إنهم يطالبونك دائما بشيءٍ أكثر إبهارا. وفكَّر هزاع:

ما الأكثر إبهارا من الموت؟

خرج من باب مستشفى الهادي الرئيس. كان الوقت يعقب أذان العشاء بدقائق. استنشق من الهواء رائحة البنزين، وراح يتأمل نهر السيارات المتدفّق أمامه على طول شارع الملك فيصل بن عبد العزيز السريع. على اليسار أضواء صفراء وزينون تقترب، وعلى اليمين أضواء حمراء تبتعد. أخرج علبة السجائر من جيبه، استلّ واحدة وراح يدخن. يدخّن ويفكّر. أعاد هزاع السؤال مرة أخرى: ما الأكثر إبهارا من الموت؟ لِنرَ: لقد دخل الجامعة، ودرس في كلية العلوم، تخصّص جيولوجيا، تخرّج بمعدّل جيد جدا، والآن يعمل في القطاع النفطي، متزوّجٌ من ابنة عمته، وأنجب ولدا. وبعدين؟ لا شيء. ولكن ما الأخطاء؟ لن يدري والده عن أشياء عدة حدثت، لن يدري أنه شتم أمه مرة لأنها اضطرت كي تحضر اجتماع أولياء الأمور المملوء بالآباء. ولن يدري أنه كان يلفق التهم لأخيه منصور وزملائه كي يحظى ببعض الانتباه من أمه والأساتذة. ولن يدري كذلك بعدد النساء اللاتي دخلن ديوانية المنزل ليمارس الجنس معهن، قائلا لهن: أنا رجل البيت، أستطيع فعل ما أشاء. وإذا زمن الحماقات قد ولّى، وأضحى الآن رجلا رصينا، جاهزا كي يراه والده، ويقيّمه.

وها هو هزاع يرى والده صغيرا، لا حول له ولا قوة، يبكي أمامه، يوسّخ نفسه، يغسّل له مؤخرته الصغيرة الحمراء، يشتري له «الحفاضات»، يطهّر عضوه الذكري الضئيل، ويشم فضلاته على الدوام. ولكن أكثر ما أربكه كان سماع البكاء مستمرا، والذي لا يتوقّف حتى تضع زوجته ثديها في فم والده، ويرضع، ثم ينام هكذا في حضنها. لم يكتف أبوه بسرقة كل شيء منه منذ الطفولة، حتى سرق منه الآن حضن زوجته.

عندما عاد أخوه منصور من السفر لاحقا، تهلّلَ وجهه، وحمل الطفلَ وصاح منغّما صوته: هلا بسعود، هلا ببوهزاع. فما كان من هزاع إلا أن انتفض من مكانه. قام وشرعَ للديوانية وأوصد الباب على نفسه. جلس على المساند الأرضيّة، ونظر جاحظا إلى النافذة التي يتسلل من خلالها أشعة شمس العصر البرتقالية.

اللعنة، هل سينجبه ابنه؟ هل سيجيء مرة أخرى عندما يُرزق ولده بولد؟ بهِ هو؟ شعر بدوارٍ في رأسه. ما الذي يحدث هنا؟ ولكن عندما عاد أبوه، كان أبوه ميتا فعلا. أما هو فقد يظل على قيد الحياة حتى تلك اللحظة التي سينجب فيه ولدهُ ولدا، فإذن كيف يعود مجدّدا وهو ما زال هنا؟ هل سيتحول إلى اثنين، أم قد يموت قبل ذلك حتى تضحي الأمور أكثر منطقية؟ اللعنة، أي منطق وأي بطيخ في كل هذا؟

حدق مرة أخرى في كهرمانية أشعة الشمس من النافذة، كم أحب هذا اللون الغارب! لا يدري أي الفكرتين أكثر رعبا، أن يصبح المرءُ اثنين، أم يعلم علم اليقين بأنه سيموت في أربعينياته، أي بوفاةٍ غير طبيعية، بل دخيلة؛ بمرضٍ ما أو حادثة. ارتعدت مفاصله. موت المرء فكرة مجردة، بعيدة عن الملاحظ، وعسيرة على التصوّر، ومن المؤلم أن تتجسّد هكذا بكل هذه الصراحة، إلى درجة أن تعيش معك، تغذيها وتربيها، وتسميها: ابنك.

إنه، وهو الجيولوجي، يعلم أن هذا قد يحدث في الطبيعة. قد تتلخبط طبقات الأرض في منطقة معينة، وتنبثق طبقة قديمة من بطن طبقةٍ أجدد، ويصعد المندثر فوق الحي، ويتناور التالد ليكشف عن نفسه على السطح، ويُدفن الحديث تحته إلى الأبد. إنها الزلازل، ويبدو أن زلزالا قد ضرب سلالته.

رأى ولده سعود يكبر يوما بعد يوم، وسنة بعد سنة، ولم يكن يرى إلا بذرة موته تنضجُ أمامه. اتهمته منيفة بأنه أبٌ سيّئ، لا يجالس ابنه. وتجرأت في القول: ولا تطيق رؤيته. ولن تنسى منيفة ذلك الصباح، عندما كان سعود في المرحلة الابتدائية، وسمعت دوي كوابح سيارةٍ في الشارع. انقبض قلبها عندما أدركت أن هزاع وابنها سعود قد خرجا لفورهما من البيت. لبست شيلتها ونزلت السلالم وانطلقت حافية تفتح باب المنزل، وإذا بسعود ساقطٌ على الأرض إثر الاصطدام، يتفقده السائق الذي ترجل من المركبة. سُرق صوتها وراحت تفتّش عن هزاع في هذا المشهد، وكان هزاع منتصبا على الرصيف على يمينها، بجانب باب سيارته الكابرس، ينظر للحدث بشرودٍ حيادي، لمدة تعدت الدقيقة ربما، المدة ذاتها التي

استغرقتها منيفة للخروج. لم يرجع هزاع إلى وعيه حتى رأى منيفة تركض في الشارع ناحية ابنها الممدد، والشيلة قد سقطت على الأرض، فركض مباشرة خلفها ببرودٍ مفاجئ.

لم يبال حتى عندما فشل سعود في مادة الرياضيات في المرحلة المتوسطة واضطر إلى أن يعيد السنة الدراسية، لم يكن يعني ذلك إلا سنة إضافية لحياته. تأخيرا لزواج الولد المحتوم، أو الأب، أيّا كان. اقترح عليه كذلك عندما أنهى الثانوية العامة أن يدرس في بريطانيا أو أمريكا، إذ أنه يعلم بأنه سيسجّل على الأقل في فصلٍ دراسيٍ واحد لدراسة اللغة، ما يعني: أشهر مجانية لحياته.

ولكن المحتوم لا بد أن يحدث في جميع السيناريوهات. تزوّج سعود الابن في آخر الأمر، ودخل هزاع في مرحلة الخطر. إنها شهورٌ قليلة حتى يأتي هزاع الحفيد، ويا لها من شهور! في تلك الفترة بدأ هزاع يتصرّف تصرفات أرابت زوجته وابنه؛ راح يأكل كميات كبيرة من التمر من دون القلق من أن يصاب بالسكر، يشرب الشاي بعد الطعام رغم علمه بأن ذلك قد يؤدي للإصابة بفقر الدم، ينام بأبرد درجة للتكييف ولا يفكر بهشاشة العظام، ولا يتوقف أبدا عن التدخين لدرجة أن زوجته لم تعد تراه إلا من وراء غشاءٍ من دخان.

رزق سعود بولد، وسماه كما دعته التقاليد: هزاع.

كان هزاع جالسا في الديوانية، متكئا على الكنبات الأرضية، وأمامه دلّتا القهوة والشاي وعلب السجائر. في هذه الساعات من النهار كان يفضل إطفاء المصابيح الكهربائية والاكتفاء بنور الشمس المائلة وهي تملأ المكان من خلال النافذة العملاقة. سمع رنة هاتفه الجوال وهي تثقب الهدوء من حوله، وما كانت إلا مكالمة من ابنه سعود. جاء صوته عبر سماعة الهاتف مبتهلا وهو يقول: يبا، هزاع وصل بالسلامة! فما كان من هزاع إلا أن أغلق الهاتف ورماه، وزاول جلسته الصامتة بهدوء. أغمض عينيه، وانتظر ثوانيَ قليلة. شعر بقلبه ينبض لايزال. انتظر توقّفه، غير أنه فاض بقرعاته الصاخبة. تنهّد. لقد ولى احتمال أن يموت إذا، ولم يبقَ إلا الخيار السريالي الآخر: الانشطار الثنائي للذات. لم يفزع، كل ما فعله كان

متابعة الجلوس وكأن شيئا لم يكن. أشعل سيجارة ونفث الدخان متلذّذا بحرقة النيكوتين في صدره. لا تبدو فكرة انشطار الذات مرعبة مقارنة بالموت. سيظلّ هنا على الأقل، ولو بشكلٍ جزئيّ. صبّ لنفسه استكانة شاي، وكان لصوت انسكاب الشاي خريرٌ لم يعرف لذته من قبل، وبرائحة الهيل انتعاشٌ كأنه تذكّر أن للمرء حاسة منسية تدعى الشم. كان فضاء الديوانية زاخرا بأشعة العصر البرتقالية، وكأنه هو والديوانية بأكملها في قاع استكانة الشاي الدافئة. ماذا بعد؟ راح يركّز بوعيه، أراد أن يصطاد تلك اللحظة التي ستتجزأ بها ذاته، أو يفقد بها جزءا من وعيه لصالح الطفل الجديد، أيّا كان، ولكن ثمة أمرا خطيرا سيحدث، وعليه أن يكون متيقظا حتى يمسكه، وربما يفهمه.

اتكأ على يديه الهزيلتين اللتين بدأتا تضعفان، وأسرع إلى مرآة الحمام. لم يختر مرآة حجرته بل مرآة الحمام لأنها أوضح وأكثر خصوصية. أغلق الباب من ورائه، واتكأ بيديه على الحنفية وقرّب وجهه من المرآة بشكلٍ لم تعد عينه ترى إلا نفسها وهي ترمش بارتعاب. تراجع قليلا وهو يجاهد ليتنفّس ببطء. متى بدأ يتنفّس بهذه السرعة؟ أغمض عينه. أطال الإغماض وهو خائف أن يفتحهما ويجد انعكاسه وقد صار نصفَ جسدٍ ونصف رأس. فتح عينيه فزعا من الفكرة، وكل ما رآه كان نصفَي جسد، ونصفيّ رأس. فتح صنبور المياه وغسل وجهه بماءٍ بارد. تنفّس الصعداء ونظر إلى انعكاسه بريبةٍ مطمئنّة. لا شيء إذا. رجع إلى الديوانية، وقبل أن يجلس على المساند الأرضية، قطع سَكينته دخول منيفة من الباب وهي تهلّل: مبروك! مبروك! وهو ينظر لها بحيرة من لا يفهم شيئا مما يحدث.

سبقته منيفة بدخول غرفة الاستقبال. أما هو فقد ظلّ أمام الباب قليلا، غير واعٍ لما سيواجه. ترامت له الأصوات من الداخل، ولم يستطع أن يميز صوتا منها. دفع الباب، وكان المكان مملوءا بأناسٍ لا يعرفهم، أو بالأحرى لا يذكرهم. جلس على أبعد كرسي في الزاوية، واستدعوا الممرضة لكي تجلب هزاع الصغير. كان الجميع يحيطون به، يباركون له، يقبّلون رأسه، يبتسمون بوجهه، بينما لم يستطع هو أن يحرّك عينيه من على الباب الذي قد تلج من خلاله الممرضة في أي لحظة. من

هـؤلاء؟ ومـا الـذي يفعلـه هنـا؟ كان المشـهد مـن حولـه ملغّـز. شـعر بـأن شـيئا مـا يبـدأ، شـيئا يشـبه الشـيخوخة والنـدم. طُـرق البـاب، واتّسـعت عينـا هـزاع وهـو يـرى الممرضـة تدخـل، دافعـة سريـر الصغيـر مـن أمامهـا وكأنهـا تدفـع حجـر قـبره.

عندمـا رمـقَ الطفـل لأول مـرة، شـعر بـأن ثمـة مـن ينفـخ عـلى شـعيرات ذراعـه التـي اسـتقامت فجـأة، وكأنهـا تريـد أن تطـل برأسـها عـلى مـا يثـير خوفـه، متجمعـة وهـي تنظـر نحـو الكارثـة، متمتمـة: مـا هـذه اليقظـة الجماعيـة، مـم هـو خائـفٌ صاحـب أرضنـا ومـا الـذي جعـل ريـاح الخـوف توقظنـا؟ ولكـن كل مـا شـاهدته كان طفـلا صغيرا هادئـا، نائمـا وسـط سريـرٍ صغـير، خصلـة الناعمـة مسـدولة عـلى جبينـه، ولـه شريطـة بلـونٍ أزرق تلـفّ معصمـه الأيمـن الضئيـل مكتـوبٌ عليهـا: هـزاع سـعود. لم تفهـم شـعيرات ذراعـه المنتصبـة لم راح قلبـه يضـخ الـدمَ بهـذه الكميـات الهائلـة والمفاجئـة، ولا سـبب جفـاف عينيـه لأنـه لم يسـتطع أن يرمـش لعـدة ثـوانٍ، فـما كان مـن حكمتهـا إلا أن عـادت إلى التمـدد والنـوم مجـدّدا. أمـا هـزاع فقـد هـبّ مـن الغرفـة بمـا يسـتطيع جسـده الضعيـف مـن سرعـة، تحـت نظـرات اسـتغراب مـن عائلة زوجـة سـعود، فقالت منيفـة: إنـه هكـذا، فعلهـا عندمـا ولـدت «سـعود». إنـه يرتعـب مـن جنـاح الـولادة، أو يرتعـب مـن الأطفـال، أو كلاهـما معـا.

عندمـا خـرج هرعـا مـن الغرفـة، رأى رجـالا يجلسـون عـلى كـراسي الانتظـار، ينظـرون إليـه. يـكاد يقسـم أنهـم الرجـال ذاتهـم الذيـن كانـوا بانتظـاره عنـد ولادة سـعود قبـل أكـثر مـن عشريـن عامـا، ولا فـرق في المشـهد إلا أنـه قـد شـاب، وهَـرِم، بينـما لم يظهـر حتـى خـطٌّ إضـافيّ عـلى وجوههـم. ولكنـه فهمهـم هـذه المـرة. إنهـم ينظمـون لهـذه الأخويّـة لا لجلـب الآبـاء للحـاضر فقـط، بـل لضـمانِ عودتهـم للحيـاة في المسـتقبل. لضـمان الأبديـة. إنهـا دورة التاريـخ اللعينـة.

لقـد مـتّ البارحـة، قـال لزوجتـه في اليـوم التـالي. فقالـت: جميعنـا يحلـم بكوابيـس هـذه الأيـام، تعـوذ مـن إبليـس بـس وصـلِّ ركعتـين. توالـت الأيـام وضـاق ذرعـا بجسـده المتهـدّل. كان يسـمع صـوت الطفـل يبـكي في الليـل، مـن الطابـق الـذي يعلـوه، حيـث يسـكن سـعود وزوجتـه. مـرة أيقـظَ منيفـة وأرغمهـا عـلى ضرب البـاب عليهـم والقـول:

الشايب يبي ينام. ولكنه لم يكن ينام في كلا الحالتين. ذاك البكاء كان شيئا أجمل من أن يُحتمل. يفاعة صراخه كانت دلالة على حياةٍ جديدة بمتناول يديه ولكنه يعجز عن الإمساك بها وخوضها. يريد أن ينتقل لهزاع ذاك، الجديد، بجسده الورديّ الصغير، واحتمالات المستقبل اللانهائية التي يملكها بقبضة يده الصغيرة. هل إن مات سينتقل وعيه مباشرة للطفل؟ تبدو هذه فكرة كمبيوتريّة بحتة، ولكنه لا يملك حيلة للتفكير بالطريقة التي تحدث بها الأشياء. إنها نظامٌ يفوقه. ولذا عاد مرة أخرى للتفكير بذلك السياق الكمبيوتريّ حتى يطمئن، فلا أحد يستطيع تحمّل ثقل اللافهم، فالتفسير الخاطئ أكثر أمانا من الجهل. أعاد السؤال بطريقة أخرى: كيف يستطيع أن ينقل وعيه للطفل؟ ولكن حتى إن نجح، سيكون قد فاته قرابة شهرٍ منذ الولادة، ولا يبدو هذا عدلا. حتى إن لم يتذكر المرء شيئا من هذه المرحلة، إلا أنه على الأقل يعيشها، يستشعرها. تقبع في الرأس كومضات مستعصية. وإن أخبره الكبار لاحقا بقصصٍ عن هذه الفترة سيبتسم، ويصدقها. ولذا فكل لحظة في جسده المتهدل هو إضاعة عمرٍ من الجسد الجديد. ولكن كيف؟ ما هي الميكانيكية لفعل تلك القفزة الذاتية؟ ربما عليه أن يتواصل مع الطفل ويكتشف ذلك. فمنذ ولادته، لم يشاهده إلا مرة واحدة. إن رؤية نفسك أمرٌ مفزع إن لم يكن في الأمر مرآةٌ ما أو صورة فوتوغرافية. أراد أن يغامر، ويقابل هذا الوافد الجديد، لوحدهما، هزاع الكبير وهزاع الصغير، وجها لوجه، حتى يتفاهما حول هذه الذات المهشمة بينهما كرجلين ناضجين. ثمة صفقة لا بد أن تحدث. ولكن من الصعب أن تجد الرضيع وحده في هذه المرحلة. إنه محاطٌ دائما بأوجه غريبة، بشعة، تطلق أصواتا غريبة ومرعبة يظنون أنها لطيفة. ولذلك انتظر فترة العصر عندما يغادر الضيوف عادة، ويُترك الطفل في غرفة المعيشة، وسط سريره المسيّج، بصحبة العاملة المنزلية الجديدة. مسألة أن يكون الطفل وحيدا في الغرفة لن تتعدى الدقائق القليلة إذا اخترع ذريعة لتصريف العاملة، ولذا عليه أن يسرع.

كان جالسا كعادته في الديوانية عندما ترامى في الفضاء صوت أذان العصر.

استغفر ربه وقام من مكانه متوجها للطابق الأرضي. تستطيع الصلاة أن تنتظر. يريد أن يكون سجوده القادم بالجسد الجديد، بروحٍ لم يكتب لها ذنبٌ بعد. ولج من باب غرفة المعيشة حيث الطفل والعاملة بسكونٍ مهيب، أصدر الباب صريرا خاف أن يوقظ به الطفل النائم. كانت الأضواء مطفأة ولكنّ النافذة سمحت لشمس العصر أن تملأ الغرفة نورا حميما يكشف عن حبات الغبار المتطايرة. مازال يستطيع سماع صوت الأذان يترامى من النافذة، وهو ينظر للعاملة جالسة بصمت، تنظر إليه وكأنها تنظر إلى ميت. تتضوّع في الأجواء رائحة المخلوق الجديد، متمثلة برائحة بودرة، حليب، سيريلاك، فضلات، وغالبا ما يحيطه من روائح عطور الزوار. فكّر بأن للإنسان الجديد رائحة نفاثة كما للأجهزة والأشياء الجديدة. كان ينظر في عيني العاملة السمراء اللتين كانتا تتروّاه من غير أن ترمش. أمرها بأن تذهب لتأكل شيئا، وما إن خرجت حتى حدّق هزاع بالسرير الصغير متوجّسا كمن يحدّق بقبره.

سقط قلبه عندما سمع من آخر الغرفة عطسة الطفل. كان لذلك الصوت الخافت وقعٌ جعله يريد أن يقترب، ويرى، تماما كما يفعل المرء حين يضيء أنوار الغرفة إن سمع في الظلام قرعا ما. فاقترب هزاع متردّدا من السرير، وفوجئ برؤية الطفل مستيقظا، وكأنه ينتظره.

إلا أن الطفل لم يكن ينظر له، وكأنه غير موجود، بل كان ينظر بعبثية الأطفال إلى السقف، بلا نقطة ارتكاز معينة. اغتاظ هزاع كونه لم يتلقَ انتباها من الطفل، وكأن في ذلك انكارا لوجوده، وتهميشا للشخص الوحيد الذي ينازعه على هذه الذات. بيد أن الطفل حرّك عينيه تجاهه في تلك اللحظة، وأصبح هزاع موجودا فجأة. وهكذا امتلأ بالقلق، وشعر بأنه في مأزق. إنه يشبهه فعلا، لن يَخفى ذلك على أحد.

لم يعرف كيف كان عليه أن ينظر له. كيف تشاهد طفلا رضيعا وقاتلا في ذات اللحظة؟ فكّر بأحقيّة قتله، فهذا الكائن لم يكتسب ذاته بعد. لايزال هلاميا. لم يصل بعد لطور الشخصيّة، وإلا لتشظت ذاته هو عند ولادة هذا الشيء. لايزال

حيوانا صغيرا لا يفقه وجوده بعد. كتلة لحم تنبض فقط. كما أن مسألة ذبحه من الممكن أن تكون دفاعا عن النفس، ومن ثم فقتله مباح. ثم ضحكَ الطفلُ فجأة. دار رأس هزاع: إنه يضحك! إنه يتكوّن! كيف يضحك قاتلٌ بهذه البراءة؟ ضحك مرة أخرى، وكان الصوت المخربش الناتج من تلك الضحكة أعذب ما سمعه في حياته كلها، وأرعب ما سمعه كذلك.

إن لم يكن قادرا على قتله، فما الذي يجب عليه فعله؟ عليه أن يفعل شيئا ما، أي شيء. فكّر أن يقول له شيئا، ولكن ما الذي يمكن أن يقوله المرء إن رأى نفسه متجسدا أمامه غير لكمه وضربه؟ ربما يفشي له بعضا من أخطائه الجسيمة حتى لا يكررها، وذلك ليقود هذه المرة حياة أفضل. نعم فالذات التي أمامه هي ذاته في النهاية، حتى لو كانت في جسدٍ آخر. ينظر إليه كأنه ينظر إلى مرآة زمنية. هذه الفكرة من شأنها أن تجعله يتسامح مع ما يرى، ويحب لها ما يحب لنفسه؛ ربما سيسرّح شعر الصغير بشكلٍ جذاب كما يحب هو، ويستبدل ألوانا يفضّلها بملابسه، ولا يستقبل الزوار لأن الآخرين متطفلون دائما. نعم، يحقّ له فعل ذلك لأنها رغباته هو، هزاع الكبير، هزاع الصغير، مهما اختلفت الأسماء والأجساد.

هل يخبره الآن بأن يتّسم بالحكمة، ألا يظلم، ويدرس أكثر؟ لا، يريد أن يخبره بأشياءٍ حقيقية. الأخطاء! ولكن من أين يبدأ بالأخطاء؟ إنها كثيرة. لن يسعفه الوقت لمحوها. ولكنها نعمة أن يحظى المرء بفرصةٍ للتقليل من الندم في حياته المقبلة. أو ربما من الأفضل أن يترك الطفل في جهله. يدرك خطورة العبث بالماضي، ومن ثم يخشى أن يغير شيئا قد يؤدي لعرقلة مجيء سعود مرة أخرى، ثم هو. كيف له أن يعرقل عودة الماضي الأبديّة، وهذه هي الأعراف هنا؟

بدأ يفكّر بحياته، وبكل الذي سيخوضه هذا الصغير. أراد أن يعيد أهم محطاتِ أيامه حتى يخرج منها بقيمة، شيء يستحق أن تدفعَ الرعب الذي يطلبه العيش كثمنٍ له، ولكنه ارتبك عندما لم يتذكر إلا عددا لا نهائيا من العصريات التي كان يجلس بها في الديوانية، حيث الأضواء مطفأة، أشعة الشمس الناعسة تمرّ من خلال النافذة العملاقة، يجلس على الكنبة الأرضيّة، يشرب الشاي والقهوة،

يدخّن، ولا يفكّر بشيء، وكأنه ينتظر حدوث شيء ما. ربما إن سأله الصغير الآن: كيف ستكون الحياة؟ سيخبره هزاع: عصريات عديدة خالية، وانتظار لشيء لن يحدث. يا لهذه الكآبة، سيقول الطفل، هذا ما خرجت منه في حياتك، هذا ما ينتظرني؟ وسيخبره هزاع بأن المرء لا يخرج بشيء بتاتا، هي لحظات قليلة تتذكرها في النهاية، ذكرى لك وأنت جالسٌ وحدك في مكانٍ ما، ذكرى فقط، قد تكون خيالا، لن تتأكد أبدا، إنها لحظات ورؤى هشّة لا تستطيع تمييزها حتى. وعندما تموت؟ يسأل الطفل. سيقول هزاع إنهم درّسوه عن ذلك، في المرحلة المتوسطة ربما، قيلت حكايات كثيرة ولكنه غير مطمئن، وبالكاد يتذكر. ماذا سيحدث؟ يصرّ الطفل. ويجاوب هزاع بأنه لا يفهم تماما ماذا يحدث؛ ثمة ملكان، بضعة أسئلة، أفعى لمن لا يصلي، قبر وسيع للمسلم، نار للكافر، وتنتظر القيامة، صوت صور مرعب، كائنات من نور، كائنات من نار، محكمة تكفي البشرية منذ بدايتها، وأبدية تنتظر، أشياء من هذا القبيل. سيصمت الطفل ويحاول أن يتخيل، ويفشل، ثم يتسامح مع الفكرة الملّغزة بقدرة الإنسان الفظيعة على الإيمان.

يستطيع هزاع أن يرى من النافذة أن الشمس كانت على وشك الغروب. عادة يكون جالسا في الديوانية في مثل هذه الساعة، يشرب شايا وقهوة. ولكنه هنا الآن، فبعدما كان يشعر بالتهميش طوال حياته بسبب هالة والده، ها قد أمسى وجوده مكثّفا أكثر من اللازم. تذكّر أباه، وطرأت له فكرة أن الأكثر إبهارا أكثر من الموت، هو مضاعفة الحياة؛ هذا المشهد تماما. دفعته هذه الفكرة للابتسام، وشعر بدغدغة في صدره تشبه الانتصار. راح يضحك، وتعالت قهقهته حتى ملأت الصمت من حوله. ضحكَ وضحكَ وضحكَ حتى أغرورقت عيناه بالدموع واهتزّت عضلاته وأضاع تنفّسه وكاد صدره أن يتمزّق. فما كان من الرضيع إلا أن يشرع بالبكاء، فاختلط ضحك الشيخِ ببكاء الرضيع في تناغمٍ شكّل إيقاعا تردّد في ردهات البيت الناعسة.

توقّف كلاهما عن التعبير عن دواخلهما، وعاد الصمت ليتسيّد الموقف. راح هزاع يمسح دموعه بكمٍّ دشداشته، وبدأ يفزع من فكرة العودة مجدّدا للحياة؛

يا إلهي، الجلوس في تلك السلسلة من الديوانيات مرة أخرى؟ ديوانيات إلى الأبد؟ من يريد هذا؟ بالتأكيد ليس هو. لا يمكن أن يسمح لشيءٍ كهذا أن يقع.

لا يدري ما الذي يحدث معه تماما، ولكن بدا كل شيءٍ مخيفٍ فجأة. هبّ خارجا من الغرفة تاركا الطفل من ورائه، وولج الديوانية مباشرة، وطلب البعد عن الجميع، فلم يعد أحدٌ بريءٌ في رأسه. حتى الخادمة التي تجلب له الشاي والقهوة، وصحن الرز الأبيض والروب بعد صلاة الظهر، وسندويتشات بعد صلاة العشاء، كان يتحاشاها بالدخول إلى حمام الديوانية وإقفال الباب على نفسه.

وزاولَ اعتكافه في الديوانية في الأيام التالية. لم تعد منيفة تراه إذ كان يرقدُ في مكان جلسته، على الكنب الأرضيّ. توقّف عن الحديث منذ فترةٍ، وصار يأكل أقلّ. وهن جسده وفقد ربع وزنه. كان شارد الذهن دوما، يلعب بمسبحته وهو يتساءل كم عصرٍ عليه أن يقضي بعد؟ لم يعد يطمئن لأشعة الغروب، إذ أصبح يؤمن بأنه أضحى غروبا بحدّ ذاته، شيءٌ في المنتصف، يتفانى دوما ولا ينقضي، وراح يطوّف صلاة المغرب، ويظل محدّقا في الجدار المسكوبة عليه الأشعة القانية لاحمرار الشّمس.

وذات يوم استيقظت منيفة على صوت الخادمة وهي تخبرها بأن السيد هزاع وسّخ فراشه، ولا ينطق بكلمة. ارتعب الجميع، وكلما حاول أحدهم محادثته، شرع بالبكاء، ثم الصمت. إن سألوه عن اسمه ليتأكدوا من سلامة عقله، ارتعب وخبأ وجهه بكفّيه. ومن يلومه، أو من يعرف من هو الآن على وجه التحديد؟ فسّر الدكتور المختص بأن هزاع يعاني من وسواس المؤامرة بسبب الاضطهاد الذي واجهه بطفولته وتهميشه، ولذلك قد يفعل ما يفعله الآن ليحصل على الاهتمام الذي افتقره في حياته، واكتفى الجميع بذلك ليتسامحوا مع حالته.

أما هزاع الرضيع، فلا أحد يذكر متى آخر مرة بكى فيها.

تقرير تغيُّب

ازدادت كراهيّتي للذّباب منذ أن فاحت من مطبخ المؤسّسة رائحة مقزّزة. ورغم رائحته، كانوا يجتمعون فيه صباحا لإفطارهم الجماعيّ. يوشوشون بهمسات تحفّها نظراتهم الحذرة وهم يمضغون لقمتهم. يتلمّظون بها. ويلعقون عظامها بألسنةٍ طويلة تطلّ من يبن أنيابهم. منهم كثر الذّباب المنبعث من المطبخ. علا طنينه المزعج في الممرّات وبين المكاتب وغرف الاجتماعات. ومع ارتفاع طنينه، زاد عدد المتغيّبين عن العمل. كانوا يختفون تباعا من دون أثر. فانهالت علينا اتّصالات ذويهم بالسّؤال عنهم. هواتف المؤسّسة لم تكفّ عن رنينٍ يخالط طنين الذّباب المنتشر فيها. أهالي المتغيّبين يجمعون على أنّ آخر العهد بهم هو توجّههم إلى المؤسّسة صباحا. ذاع خبر اختفاء الموظفين وتناقلته الصّحف. مضت أسابيع. ولم يعد منهم أحد.

***

استدعاني الرّئيس إلى مكتبه حين نفد صبره. طالبني بتفسير الأمر فلُذتُ بصمتي. هوى بقبضته على مكتبه مكرّرا سؤاله والزّبد يتطاير من فمه:

- ما هذه اللّعنة التي حلّت بمؤسّستي؟!

مرتبكا لم أجد غير إلقاء اللوم على أولئك الذين يُفْطرون بهمساتهم كلّ يومٍ في المطبخ. فيجتمع عليهم الذّباب. ثم ينبعث منه بطنينه المؤذي ينثر جراثيمه في أرجاء المؤسسة. لم يقنعه تفسيري. هزأ كعادته برأيي:

- مازلت تعاني من عقدتك مع الحشرات!

أردتُ توضيح وجهة نظري، فقاطعني هامسا كمن يخصّني بسرٍّ مرعب:

- جاءتني بالأمس المباحث الجنائيّة... أهالي الموظفين يتّهموننا بالتآمر على موظّفينا للتّخلّص منهم!

أجبته وأنا أطرد بيدي ذبابة شاغبتني:

- ما من مبرّر منطقيّ لاتّهامٍ كهذا!

توجّهَت الذّبابة نحوه. حامت حول رأسه ثم رست عليه من دون أن يبعدها. صامتا استلّ سيجارة من العلبة أمامه. انتصب وأشعلها. دار حول مكتبه وجلس

على المقعد الذي يواجهني. لم تزل عينا الذّبابة تحدّقان بي، وهي تحكُّ أرجلها فوق رأسه. ولمّا نفث كلماته تجاهي طارت الذّبابة مع الدّخان:

- طلبوا منا تقريرا مفصّلا عن جميع المتغيّبين لاستكمال إجراء تحقيقهم الجنائيّ.

ووصلتني أوامره تزفّها الذّبابة مع باقي دخانه:

- أريده على مكتبي صباح الغد!

***

صباحا عند بوابة المؤسّسة، كنت أصكُّ بيدي على التّقرير الذي أعددتُه. لم يكن الوضع في السّاحة الأماميّة لمبنى المؤسّسة طبيعيّا على الإطلاق. الهواء يحمل رائحة نتنة. رجال الشّرطة منتشرون. تغطّي أفواههم وأنوفهم أقنعةٌ بيضاء. يحملون أكياسا مختلفة الأحجام تقطر على الأرض دما. كانوا ينقلونها إلى توابيت خشبيّة. تستلقي على ظهر شاحنات نصف مكشوفة. يحوم فوقها الذّباب كأسراب الجراد. استوقفتُ أحدَهم. استفسرتُ منه عن محتوى الأكياس. فأجابني على عجل من تحت قناعه:

- أشلاء وُجدت مكدّسة في ثلاّجة مطبخ المؤسّسة! أرجوك ابتعد الآن... لدينا الكثير لنقوم به.

لم أصغِ إليه. اقتربتُ من البوّابة أكثر. كانت موصدة بالسّلاسل والأقفال الكبيرة. تتدلّى على صدرها ورقةٌ مختومة. قرأتُها:

«مغلقة لاستقدام موظّفين من أكلة لحوم البشر».

تراءت لي ألسنتهم الطّويلة. أنيابهم الحادّة. رنّت في سمعي بقايا من صدى وشوشتهم وهمساتهم الملعونة في المطبخ. تسلّلت ورقة من التّقرير لتسقط من يدي. خالط حبرها بعضا من النّقاط الحمراء المتناثرة على الأرض.

***

اللَّيْلَة يَموتُ شَهْرَيار

تقول زوجتي كلاما لا تعنيه. تتوعّد بجمع كتبي المفضّلة في صندوق. تحمله إلى حفرةٍ خلف المنزل. تضرم فيها النار ثم تقذف بالكتب إليها لتصير رمادا تُهيل عليه التراب. كلماتٌ من غيرةٍ أُنثوية الثورة تتأجّج كلّما استدرتُ على السرير ليلا. أضأتُ مصباحي الخافت. ومددتُ يدي إلى أحد كتب مؤلّفتي الأثيرة على المنضدة بجانبي. عندها تثور ثائرتها. ترميني بحمم وعيدها. وداخلي يبتسم. فبركان غيرتِها يخبو سريعا. تعطيني ظهرها. وهي تهمهم ببقايا غيظٍ يتلاشى كدخانٍ رقيق لشمعةٍ استسلمتْ للنعاس.

حين تنام، أرفع الدثار عنّي. أنهض بحذر. أتجه إلى شبّاك الغرفة. بمهلٍ أفتحه لنسيم السَّحر. يُزيح الستارة عن لوحةٍ ليليّة. بدرٌ على عرشه تحفّه النجوم. لآلئ نُثرت على سندسٍ أسود.

***

على القمر، تكبر شامةٌ صغيرة. رويدا تتضح معالمها. تتجسد ظلاّ آدمياّ يحلّق نحوي. من الظلّ، تخرج ملامح امرأة لا أخطئها أبدا. على بساطٍ تقترب بغلالةٍ شفيفة. إكليلٍ ذهبيّ وياقوتةٍ حمراء. تدنو حتى لأشعر بدفء أنفاسها. رشح زعفران يفور بجيدها. تهمس. تجذبني. تخرجني من نافذتي.

***

إلى «دجلة» أخذتني ذات ليلة. سرتُ معها، تحت ظلال النخيل المصطفّة بوجل على امتداد الضفة. رأيت صيادي بغداد. يلْقون بالشباك إلى نهرٍ تلوّن بحمرة غروبٍ كالعقيق. يسحبونها. فيجدونها شُكّت بمصابيح نحاسية. يستقرّ فيها المردة منذ عهد سليمان.

***

بدنوّ الفجرِ تُرجعني إلى داري. أودّعها. تغادر وتبقى رائحتها. أغلق الشبّاك قبل عودتي إلى الفراش. أرفع إلى رأسي الغطاء كأنّ شيئا لم يكن. كان ذلك يحدث كل ليلة. معها تجاوزتُ الألف ليلة. كبرتُ عمرا. ولم تكبر.

***

في ليلةٍ التمعت عيناها. خواتمها زمرّدٌ أخضر. أناملها لامست شعيراتي البيضاء. وبنظرة وداعٍ باغتتني:

«كم أحبّ لو أعود!».

ضمّت يدها إلى صدرها. ارتقتْ بالبساط إلى السماء. بذهول عيني شيّعتها. غابت وراء القمر. أغلقتُ نافذتي. ودسستُ بنفسي إلى جانب زوجتي. طيفها الشفّاف راودني. حين صاح الديك قمتُ للفجرِ من حضن الوسن. وعدتُ لأغفو. لم يزل الرنين:

«هل ستعود؟».

وانتظرتُ الليل بشوق.

***

نامت زوجتي حين خبتْ جمرة غيرتها. ركنتُ كتاب مؤلفتي الأثيرة. من السرير تسلّلت. أشرعتُ نافذتي أطلّ منها. أترقّب بزوغ شامةٍ على خدِّ القمر. دبّ حسيسها من مكانٍ ما. ولَمّا وجدتُ في الليل عبق زعفران، أدركتُ أنها بالجوار، عند نافذةٍ أخرى على بساطٍ يحمله الريح. من بعيدٍ، سمعتُ صدى همسٍ لم أميّز كلماته، مجرّد همساتٍ تتردّد تحت ليلٍ غمرته ألف نجمةٍ ونجمة.

انتظرتُ طويلا تلك الليلة. لكنها لم تأتني. وما زلتُ عند نافذتي أنتظرها... في كلِّ ليلة.

***

القصص القصيرة الكويتية

البحث عن لآلِئ ثمينة

يُقال أن الكتاب هو مرآة الحياة. يمكنك أن ترى فيه عالمًا جديدً ا وحتى أن «تتمشى» فيه، حتى لو كان يبعد عنك بمسافات كبيرة. على سبيل المثال، تفصل بين أوكرانيا والكويت آلاف الكيلومترات، لكن هذا الكتاب سيفتح الستار على عالم الأدب الكويتي، الذي لا يزال terra incognita (أرضًا مجهولة) للقارئ الأوكراني.

اللؤلؤ هو جزء لا يتجزأ من عادات وتقاليد الشعب الكويتي، حيث كان صيد اللؤلؤ من المهن الرئيسية للكويتيين في بداية القرن الماضي. الآن نعيش في زمن مختلف، وغالبا ما يمكنك العثور في الكويت على تسميات تعيدك الى زمن اللآلِئ. والكويت نفسها تسمى لؤلؤة الخليج.

إذا، ما هي الكنوز المخبأة في قاع بحره؟.. سيكتشفها غواص شجاع في الأعماق المجهولة وهو أنت، عزيزي القارئ.